

طلقة تنوير 42

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1
تشرين الثاني 2017

- المؤامرة في التاريخ: حقيقة أم خيال؟/ إبراهيم علوش
- المواطن العربي تحت المطرقة/ بشار شخاترة
- تاريخية السيرة (1) - المصادر/ محمد العملة
- شخصية العدد: عروبة صلاح الدين الأيوبي/ نسرين الصغير
- مدينة عربية: سرت اللببية/ فارس سعادة
- الصفحة الثقافية: جان شمعون، سينماني على جبهات القتال/ معاوية موسى
- منبر حر: في هيمنة الصورة على الحقيقة و فرض رسمها على الواقع الجزئي أو المجرأ/ واصل البدور
- المؤامرة حقيقة جلية وليست مجرد نظرية/ عبدالناصر بدروشي
- قصيدة العدد: صلاة الياسمين/ طارق شخاترة
- كاريكاتور العدد

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

طلقة تنوير العدد 42

المؤامرة في التاريخ: حقيقة أم خيال؟

إبراهيم علوش

لطالما تندّر الكتاب الليبراليون على ما يعتبرونه نزوع العقل العربي لتبني "نظرية المؤامرة"، أي نزوعه، بحسب زعمهم، لتفسير التاريخ بالمؤامرات المحرّكة له، ولتفسير الظواهر السياسية المعاصرة، بالتالي، من خلال أحادية تدخل قوى خفية خبيثة كئيبة القدرة، هي في المحصلة إما الغرب أو الصهيونية العالمية أو الشبكات والشخصيات المحلية المرتبطة بهما.

من يبحث قليلاً على الشبكة العنكبوتية، سيدجد كمّاً هائلاً من المقالات والأبحاث التي تتناول ظاهرة تبني العرب لـ "النظريات التأميرية"، لاسيما باللغات الأجنبية، ومن ذلك مثلاً كتاب "النظريات التأميرية في العالم العربي: مصادر وسياسة"، من تأليف ماثيو غراي، والمنشور عام 2010، وهو مستشرق أسترالي، وكتاب الصهيوني المعروف دانييل بايبس، "اليد الخفية: مخاوف الشرق الأوسط من المؤامرة"، والمنشور عام 1996. والرسالة المتضمنة والمعلنة في تلك الأدبيات هي دوماً: ابحثوا عن مصدر مشاكلكم، أيها العرب، في أنفسكم، لا في الخارج، ابحثوا عنها في "ثقافتكم"، في "أنظمتكم السياسية"، في "مجتمعكم"، في "مخكم"، إلخ... وهي الرسالة التي ما برح يجترّها الليبراليون العرب والمؤسسات الدولية والممولون الغربيون على شكل دعوات لـ "دمقرطة" المجتمع والفكر والثقافة و"إصلاحها" في الوطن العربي من خلال تطبيق نموذج الليبرالية الغربية.

وبعيداً عنّا، في الغرب، كثيراً ما يرثي كتاب المؤسسة الحاكمة لجنوح قطاعات شعبية في الولايات المتحدة لتبني "نظريات المؤامرة" عن اغتيال الرئيس الأمريكي الأسبق جون كنيدي (الذي أفرج عن كمية كبيرة من الوثائق المتعلقة بمقتله مؤخراً)، أو "زعم" الهبوط على سطح القمر، أو "شبكة الهيمنة" اليهودية أو الماسونية العالمية، أو أحداث 11 سبتمبر بصفتها "مفتعلة من قوى داخل النظام الأمريكي نفسه"، أو التغيّر المناخي كـ "خدعة مفتعلة"، أو انتشار مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) "كمؤامرة ضد الأقلية الأمريكية من أصل إفريقي"، أو غيرها من الأحداث والظواهر، كما أن بعض هؤلاء الكتاب يرثون لكون وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة أعطت منبراً لمروجي تلك النظريات التأميرية لنشر أفكارهم عبر المواقع وأفلام الفيديو، وثمة دراسات وأبحاث سيكولوجية وسوسولوجية كثيرة تربط تلك النزعة لتبني "نظرية المؤامرة" بالأصولية الدينية أو بالتعصب القومي لدى اليمين العنصري الأبيض في الولايات المتحدة

لمتابعنا انظر موقع لائحة القومي العربي:

www.qawmi.com

وصفحة (لائحة القومي العربي) على فيسبوك
روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر

www.freearabvoice.org

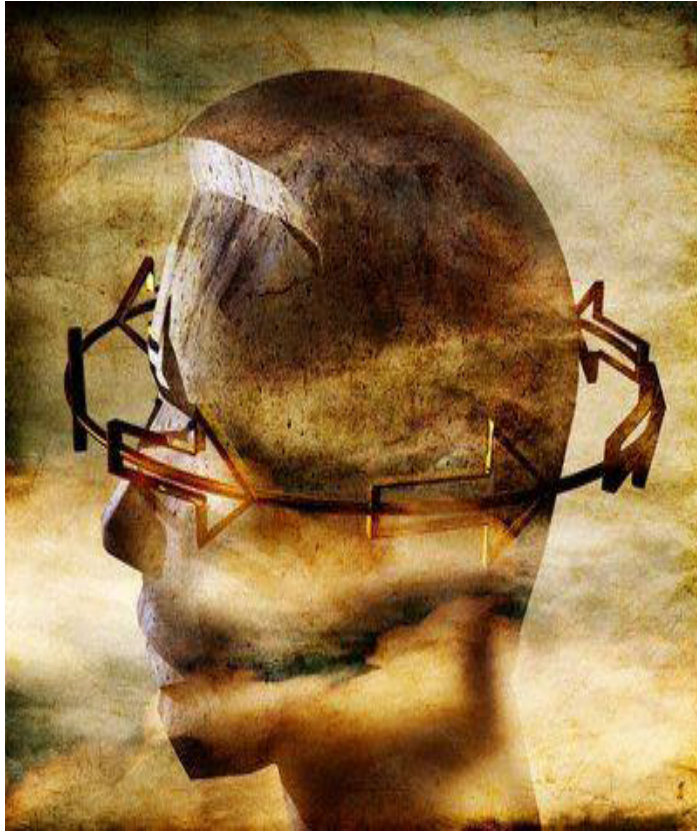
راسلنا على:

arab.nationalist.moderator@gmail.com

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

وثمة من يرى أن "نظريات المؤامرة" منتشرة بأشكال مختلفة، ومتناقضة، عبر المجتمع الأمريكي برمته لا ضمن فئة بعينها، كما يحاول أن يثبت واضعاً كتاب "نظريات المؤامرة الأمريكية" المنشور عام 2014، جوزيف أوزينسكي وجوزيف بارنت، في دراستهما الإحصائية والتحليلية لهويات وديموغرافيا من يتبنون "نظريات المؤامرة" في الولايات المتحدة الأمريكية.

الحديث عن "نظرية مؤامرة" في العالم الأكاديمي والثقافي الغربي، وعند الليبراليين العرب، هو حديث تحقيري واستعلائي لأن تلك "النظرية" تعتبر برأيهم غير علمية وأقرب للتهجيس والخرافة، ومخرجاتها بحسب هذه الرؤية عبارة عن منتجات غيبية من صناعة عقل عاجز أو كسول يبحث عن إجابات تبسيطية سريعة تحاكي تحيزات أو أحكاماً مسبقة تلقى بأقبال جهلها المعرفي أو تهميشها السياسي أو الاقتصادي على كاهل "كبش محرقة" خارجي سواء كان "الحكومة الأمريكية" في حالة اليمين الأمريكي المتطرف أم كان "اليهود" أم غيرهم، ومن المعروف أن قواعد اليمين الأمريكي المتطرف والديني تتبنى أفكاراً تأمرية مختلفة عن الحكومة الفيدرالية الأمريكية تتراوح بين محاولة إلغاء الحق الدستوري للمواطن الأمريكي بامتلاك السلاح الفردي وحمله، إلى محاولة شطب الطابع المسيحي لأغلبية الشعب "الأبيض"، إلى فكرة وجود شبكات سرية تتحكم بمفاصل الدولة غير خاضعة للمساءلة والمحاسبة والانتخاب، وهو ما نجده منعكساً في بعض



أفلام هوليوود أحياناً، كما في فيلم "يوم الاستقلال" Independence Day، الذي تخفي فيه الحكومة الأمريكية حقيقة معرفتها بنزول "سفن وكائنات فضائية على كوكب الأرض"، وهي "نظرية مؤامرة" شائعة إلى حد ما في المجتمع الأمريكي.

ويسود رأي في صفوف النخبة الأمريكية مفاده أن مثل هذه القناعات "اللاعقلانية" لدى قطاعات من الشعب الأمريكي، الأقل دخلاً وثقافة (والأكثر ابيضاضاً)، ساعدت على وصول الرئيس دونالد ترامب إلى سدة الحكم، ومن هذا المنظور يمكن أن نفهم سياق منح جائزة نوبل في الاقتصاد في شهر تشرين أول عام 2017 للبروفسور ريتشارد ثالر من جامعة تشيكاغو الأمريكية، فالدكتور ثالر، ناقض فرضية "السلوك العقلاني" التي تتبناها النظرية الاقتصادية الغربية كتابت مقدس لا يُمس، ليُظهر أن الناس قد يتصرفون بشكل غير عقلاني منهجياً، وتكراراً، وجماعياً، وأنهم بحاجة إلى "محفزات" خارجية تدفعهم للتصرف بشكل عقلاني، وأن ذلك ينطبق على سلوك الناس لا في الحيز الاقتصادي فحسب، بل في الحيز السياسي، حيث يمكن بسهولة أن ينزلقوا لاختيار ما هو أسوأ لهم عندما يعطون الخيار، بدلاً مما هو أفضل (الذي يفترض ضمناً أنه الخيار الديمقراطي الليبرالي دوماً). لا بل أن أحد الكتاب المتحمسين للحائز الجديد على جائزة نوبل سارع لتطبيقها على "اللاعقلانية" الراضين بعناد لـ "حلحلة النزاع الفلسطيني-الإسرائيلي"، الذين يصبحون بدورهم بحاجة لـ "حوافز" ليسيروا باتجاه "التسوية السياسية للنزاع"، لكي يصيروا "عقلانيين"! (انظر مقالة "ما الذي نقوله لنا جائزة نوبل للاقتصاد عن السلام بالشرق الأوسط؟"، صحيفة "الغد" الأردنية، في 24 تشرين أول 2017).

"نظريات المؤامرة"، بحسب نقادها، تصبح إذن مركباً سهلاً للتجيير السياسي وللتجيش الانتخابي ضد "المهاجرين الأجانب" مثلاً أو الأقليات الدينية والعرقية، أو ضد اليسار الليبرالي في الغرب، أو ضد "الحكومة العالمية" (التي يفترض أن الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة، وما يعادله في أوروبا، يحاول أن يفرضها على البلدان الغربية!).

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

أي أنها تصبح مطيةً للنزعة الشعبوية، ولسياسي اليمين المتطرف الذين يستغلون جهل الجمهور وشعوره بالتهديد في لقمة عيشه أو نمطه الثقافي ليتلاعبوا بالنظام السياسي لمصلحة أجندات خاصة تدمر التطور الاقتصادي للبلدان الغربية من خلال «إعاقة العولمة» و«التبادل الحر» بين الأمم والشعوب... أو، على الطرف المقابل، تصبح مركباً سهلاً لتجيش الأقليات في الولايات المتحدة من قبل القادة الشعبويين الأمريكيين من أصل إفريقي لمحاولة «فرض تدخل الدولة في الاقتصاد من خلال برامج الإعانات وما شابه»، بالنسبة لمن يتهمون الحكومة الأمريكية بأنها خلف انتشار الإيدز والمخدرات في غيتوات أو أحياء الأمريكيين من أصل إفريقي.

ف«نظرية المؤامرة»، بهذا المعنى، تحمل من الزاوية المعرفية شحنة سلبية توحى بالخواء المعرفي وضلال البوصلة تشبه تلك التي يحملها تعبير «عقل تكفيري» في قاموسنا، كعقل غيبي أعمق يتيح تجيير الجمهور سياسياً كقطع لمصلحة أجندات خاصة، ولو لم يحمل الوحشية والإجرام نفسه الذي يحمله العقل التكفيري، لكن «نظرية المؤامرة» عند نقادها تظل مجموعة تعميمات غير علمية، قد تبدو متماسكة ظاهرياً، ولكنها تظل مفككة داخلياً، لا تصمد أمام التدقيق الجاد، وهي قابلة للتجيير سياسياً. ولهذا فإن وصف أي فكرة أو رأي بأنه يستند لـ«نظرية مؤامرة» يعني تحقيره وازدراءه والاستعلاء عليه، مما يتطلب ممن يرغب بأن لا يحظى بمثل هذه المعاملة الإقصائية فعلياً من قبل «أرباب العلم والمعرفة» أن يتعد عن تبني كل رأي يبدو أن ثمة مؤامرة تتخلله، لكي يكون المرء «علمياً» و«موضوعياً» بهذا المعنى، وهذا يعني في السياق العربي طبعاً التخلي عن «فرضيات» تلاعب قوى الهيمنة الخارجية بالأمة العربية خصوصاً وبشعوب العالم الثالث عموماً، والابتعاد عن محاولة تفسير الحدث السياسي من خلال عوامل خارجية، كما يفعل توماس فريدمان في كتابه «من بيروت إلى القدس» (المنشور عام 1989) حين يتهم، في معرض حديثه عن الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)، بأن اللبنانيين ينسبون تلك الحرب وأسبابها لفاعيل خارجية من كل الأنواع والأشكال، مستنتين أنفسهم!

كذلك ثمة أعمدة في صحف ومجلات أمريكية رئيسية تنتدر على فكرة أن «الولايات المتحدة ساعدت بإنشاء داعش»، وهنالك مساهمات بريطانية بالطبع في مثل هذه التهكمات نجد أحدها مثلاً على موقع «هيئة الإذاعة البريطانية» BBC من العام 2014

<http://www.bbc.com/news/world-middle-east-28745990>

الأمثلة كثيرة، وبعضها يذهب إلى التعامل مع «نظرية المؤامرة» بمنطق التسخيف المطلق، ومن ذلك مثلاً يضع مقالات عن فكرة تناقلها بعض المصريين عام 2010 بأن هجمات أسماك القرش في شرم الشيخ جاءت بفعل الموساد لضرب السياحة في مصر، أو أن الصقر الذي تمّ القاء القبض عليه في في الأسبوع الأول من كانون الثاني 2011 في حائل في السعودية باعتباره «عميلاً للموساد»، لأنه كان محملاً بجهاز تحديد مواقع GPS وحلقة بإحدى قائمته تدل على أنه جاء من مختبر في جامعة «تل أبيب»، (يقول الكيان الصهيوني أن الصقر كان جزءاً من «تجربة علمية» عن الطيور المهاجرة لا علاقة لها بأي شيء أمني).

- نقد نقاد «نظرية المؤامرة»:

لقد كان الهدف فيما سبق من سطور نقل مضمون وجهة نظر نقاد «نظرية المؤامرة» بأكثر ما يمكن من الدقة، لفهم بعض خلفياتها وسياقها وماهيتها، وليعرف نقاد «نظرية المؤامرة»، عندما نشرع بتشريحها ونقدتها، أننا لا نفعل ذلك جزافاً أو اعتباطاً. وسيكون تركيزنا فيما يلي على نقد نقاد «نظرية المؤامرة» المتعلقة بالوطن العربي والعالم الثالث تاركين تحليل نقاشي «نظريات المؤامرة» في الولايات المتحدة، إذا احتاج الأمر لمناسبة أخرى.

لا شك أن أي شخص عاقل لا يمكن أن يضع نفسه في موضع الدفاع عن «نظرية المؤامرة» بالشكل الهزلي الفارغ الذي يصورها فيه نقادها. ولكن لكي نعرف عماذا نتحدث، ولكي نفيك الخيوط العنكبوتية المتشابكة التي ينسجها نقاد «نظرية المؤامرة» من حولها ليصطادوها كفريسة لا حول لها ولا طول، لا بد أن نبدأ بوضع بعض الأسئلة والتساؤلات، ومنها:

1) ما هو تعريف «المؤامرة»؟ وهل هي موجودة حقاً؟ وما الذي يمكن اعتباره «مؤامرة» بالضبط؟

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

- (2) إذا افترضنا وجود "مؤامرات"، هل هي ذات أثر يذكر في المشهد السياسي فعلاً، أم أنها ذات أثر هامشي عابر لا يغيّر من المسار العام للتاريخ كثيراً؟
- (3) لو افترضنا جدلاً عدم وجود أي "مؤامرات"، و"تأمر" من أي نوع، هل يمكن نفي وجود قائمة طويلة من التداخلات الأجنبية المؤثرة في تاريخ العرب وشعوب العالم الثالث؟
- (4) هل يمكن نفي وجود مراكز قوى في أي منظومة محلية أو إقليمية أو دولية تسعى دوماً لدفع الأحداث، سراً أو علناً، لتصبّ في مصلحتها؟
- (5) لو افترضنا جدلاً وجود "مؤامرات" مؤثرة نجحت فعلاً بتغيير مسار الأحداث، هل يعني ذلك أن كل التاريخ "مؤامرة"، وهل إثبات وجود "مؤامرة" في بعض الحالات دليل على وجودها في كل الحالات؟ بتعبير آخر، هل كل شيء عبارة عن "مؤامرة"؟
- (6) لو افترضنا وجود "مؤامرات" مؤثرة، ما هي نسبة العوامل الداخلية، مقابل العوامل الخارجية، في إنتاج الإشكالات والأزمات التي كثيراً ما تُنسب لـ "مؤامرة"؟
- (7) لو افترضنا وجود "مؤامرات" مؤثرة، هل يعني ذلك أنها قدرٌ لا يُرد؟ وما هو دور "الإرادة الحرة" والعنصر الذاتي للأفراد والشعوب برّد كيد مثل تلك "المؤامرات" إلى نحرها؟

لنبدأ بتعريف "المؤامرة" إذن. فهي في قاموس أكسفورد "خطة سرية من قبل جماعة من الناس للقيام بما هو مؤذٍ أو مخالف للقانون". والتأمر هو التخطيط والإعداد الذي يسبق تنفيذ تلك الخطة. والمؤامرة في القانون الجنائي تقع عندما يتفق شخصان أو أكثر على القيام بأي عمل مخالف للقانون، ومن ثم يقومان بأي خطوات باتجاه تنفيذه، ولو لم يكن تنفيذ الجريمة قد تمّ عند إلقاء القبض عليهما. فالمؤامرة تتضمن إذن عنصر السرية، وعنصر الاتفاق بين شخصين أو أكثر، وعنصر مخالفة القانون (الجريمة). والمؤامرة السياسية، بهذا المعنى، متفشية أكثر مما يمكن حصره أو إعطاء الأمثلة عليه، فكل انقلاب، وكل عملية اغتيال، وكل تفجير في مكان عام، وكل اختراق أمني، يتضمن قدراً غير هين من التأمر بالضرورة، وعندما يكون القائمون على مؤامرة ما مناهضين لأصحاب السلطة والنفوذ والجاه، يصبح ما يقومون به مخالفاً للقانون طبعاً، ومن ذلك الأعمال المقاومة في ظل الاحتلالات مثلاً (التي تتضمن بدورها الكثير من التأمر أيضاً)، وعندما يكونون هم السلطة والنفوذ والجاه، يصبح اتهامهم بالتأمر أصعب بكثير، حتى لو أوقعوا الكثير من الأذى بالناس، ومارسوا كل ما يعتبرهم غيرهم جريمة، إلا حين يذهبون إلى مخالفة قوانين سلطتهم صراحةً، أو إلى مخالفة قوانين سلطة أخرى يحاولون الإيقاع بها، أو إلى مخالفة تلك الحزمة الهشة والمختزقة المسماة "القانون الدولي"، وحتى وقتها يظل اتهام أصحاب النفوذ بالتأمر "مسألة خلافية" لأن الحكم فيها يظل لقانون القوة، لا لقوة القانون.

النقطة الأولى إذن هي أن المخططات السرية التي يتفق عليها اثنان أو أكثر والمناهضة للمؤسسة الحاكمة (وقانونها) موجودة بكثافة، ومن الطبيعي أن القائمين عليها لا يسمونها "مؤامرة"، وأن المتضررين منها قد يصفونها بكل شيء يحط من قدرها، ومنها "مؤامرة". فالعمل العسكري المقاوم للعدو الصهيوني قد يسميه هو "مؤامرة"، وهذا لا يعني كثيراً، لأنه عمل مقاوم بالنسبة لنا، لا "مؤامرة"، التي تتضمن بالضرورة معنىً مبطناً هو "غير مشروع"، أو "غير قانوني"، فما نقوم به مشروعٌ بحسب قانوننا الأخلاقي وقانون الشعوب الطامحة للتححرر، وليسم العدو العمل المقاوم بما يشاء، وبالمقابل فإننا نعتبر ما يقوم به العدو من اغتالات واختراقات وتفريق للصفوف إلخ... مؤامرة من وجهة نظر قانوننا، والعكس بالعكس بالضرورة.

العبرة إذن تظل بمشروعية العمل الجماعي السري أخلاقياً وسياسياً. فالسؤال الحقيقي هو: مؤامرة بحسب مفاهيم ومرجعيات وقانون من؟ فوصف عمل العدو بالمؤامرة جزء مشروع من الحرب الإعلامية والنفسية لإسقاط المشروعية عما يقوم به ضدنا، ومن توصيف الجريمة باسمها الحقيقي، وما سيكتبه التاريخ كمؤامرة في المحصلة، وما سيكتبه كعمل بطولي بالمقابل، هو رواية المنتصر، ورواية الشعوب الطامحة للتححرر كثيراً ما تتطابق، وكذلك روايتها للتاريخ، لأنها تنطلق من منطلقات متشابهة، وكذلك رواية قامعي الشعوب ومستغلبهم. فآرنستو تشي غيفارا بطلٌ عند المناهضين للإمبريالية، وهو "قاتل" و"متأمر" إلخ... عند أندية الإمبريالية في أمريكا الجنوبية والعالم. وعمليات المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي بطولية عندنا، و"مؤامرة" عند المحتلين وأذئابهم. و"مؤامرة البارود" التي استند إليها فيلم V for Vendetta كانت جزءاً من الصراع الطائفي الكاثوليكي-البروتستنتي في بريطانيا في بداية القرن السابع عشر، ولو تمكن الكاثوليك عبرها من السيطرة على الحكم، لما وُصفت بأنها "مؤامرة" Gun powder plot.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

اتفاقية سايكس-بيكو (1916) التي قسّمت المشرق العربي إلى دوائر نفوذ هي بالضرورة مؤامرة بالنسبة لنا، وقد تحقق فيها عنصر السرية وعنصر الاتفاق بين شخصين أو أكثر وعنصر إيقاع الأذى بأمة بأكملها، وعنصر الجريمة ضد أمتنا، ولكنها لم تكن مخالفة للقانون الفرنسي أو البريطاني، فهل المطلوب أن نكفّ عن تسميتها مؤامرة لأن قانون الاستعمار يجعلها "مشروعة"؟! والأهم، هل يمكن الإنكار أن تقسيم الوطن العربي إلى دويلات، عبر اتفاقية سايكس-بيكو وغيرها، لم يكن ذا أثر هامشي، بل كان ذا أثر شديد في إعاقة تطور الوطن العربي وتنميته وتحرره؟ وهل يمكن أن نفهم التاريخ العربي الحديث والمعاصر من دون العودة إلى جذور ما يسمى "المسألة الشرقية"؟

هل يمكن الإنكار أن انقلاب عام 1973 في تشيلي في أمريكا اللاتينية ضد الرئيس المنتخب ديموقراطياً سلفادور الليندي، هذا الانقلاب الذي جاء بدعم وتشجيع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما تمّ الاعتراف علناً في مؤتمر رسمي لأجهزة الأمن الأمريكية عام 2000، كان مؤامرة، وأنه أثر بعمق على مدى عقود، في مسار الحرب الباردة، وفي تطور تشيلي وأمريكا الجنوبية السياسي، تأثيراً غير هامشي؟

هل يمكن الإنكار أن الانقلاب المدعوم من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، والاستخبارات البريطانية، ضدّ رئيس الوزراء محمد مصدق في إيران عام 1953، الذي كان قد أممّ النفط، هو مؤامرة، وأنه أثر على مدى عقود، في تطور إيران ومنطقة الخليج السياسي، وفي سوق النفط، تأثيراً غير هامشي؟

هل يمكن الإنكار أن دعم حكومة الولايات المتحدة لعصابات الكونتراز في نيكارغوا، ما بين نهاية السبعينيات وبداية التسعينيات، في مواجهة النظام السانديني، كان مؤامرة، وكذلك دعمها للمهاجرين الكوبيين الذين قاموا بعملية إنزال في "خليج الخنازير" في كوبا عام 1961، ودعمها للميليشيات الإرهابية الموازية للجيش في كولومبيا، ودعمها للـ"مجاهدين" في أفغانستان منذ نهاية السبعينيات، ودعمها لما يسمى "جيش تحرير كوسوفو" في يوغوسلافيا السابقة في التسعينيات، وأن تلك المؤامرات كان لها تأثير عميق في حياة الشعوب والبلدان والأقاليم التي تعرّضت لها، وأنها شكلت جرائم في قاموس الشعوب؟

من الواضح طبعاً أن الشكل التأمري من التدخلات الغربية في دول العالم لم يكن الشكل الوحيد، بل جاء متمماً للتدخلات العسكرية المباشرة، حتى لو افترضنا جديلاً أن التأمير الغربي لم يحدث أصلاً، وقد تعرّضت أمريكا الوسطى والجنوبية مثلاً لحوالي 150 تدخل من قبل حكومة الولايات المتحدة بشكل مباشر أو غير مباشر في القرنين التاسع عشر والعشرين. ويصعب أن يُنكر أي عاقل أن احتلال بريطانيا لفلسطين، تحت عنوان "انتداب"، كان تدخلاً عسكرياً مباشراً، تخلله الكثير من التأمير، لتسليم فلسطين لليهود. واحتلال بريطانيا للهند تدخل مباشر، ولكن شقّ حركة التحرر الهندية على أساس طائفي بين الهندوس والمسلمين، مما أدى لانقسام الهند بعدها إلى هند وباكستان (وبنغلادش)، تضمن الكثير من التأمير. وقصف الناتو ليوغوسلافيا في التسعينيات تدخل عسكري مباشر، أما السعي لتفكيك يوغوسلافيا بأدوات داخلية، فمؤامرة، وللمزيد حول الموضوع الأخير، الرجاء البحث عن (التمويل الأجنبي لمنظمات المجتمع المدني: وثيقة للسي أي إيه). وقصف الناتو لليبيا عام 2011، ودعم العصابات الإرهابية التكفيرية التي حلّت محل النظام الوطني فيها مؤامرة تخللته الكثير من الجرائم. وكذلك ترافق العدوان على العراق، وحصاره ثلاثة عشر عاماً، تدخلاً عسكرياً مباشراً والكثير من التأمير التي تجلّت بعض أشنع فصوله في الدستور الذي فرضه الاحتلال والذي أسس لصراعات داخلية لا تنتهي. والحقيقة أنه يكاد لا يوجد بلد في المعمورة برمتها لم يتعرّض لتدخلات غربية مباشرة أو غير مباشرة، علنية أو سرية، نجحت أو فشلت، وفي كل تلك الحالات، يظلّ الصراع على التسمية (مؤامرة أم لا؟) صراعاً على المشروعية والمرجعية في تسمية الجريمة باسمها أو في التغطية عليها، أي أنه التهمة المعنوية والإعلامية والأخلاقية للحرب السياسية والعسكرية الدائرة على الأرض.

بهذا المعنى بالذات، يمكن القول إنّ الصراع ضدّ "المؤامرة" في زماننا المعاصر هو وجه آخر للصراع ما بين الإمبريالية والدول المستقلة، ولصراع الشعوب وحركات التحرر مع أدوات الإمبريالية المحلية والإقليمية، فالحرب العالمية على سورية في السنوات السبع الأخيرة مثلاً تتخذ أحياناً شكل تدخلات فظة مباشرة، وأحياناً أكثر شكل تأمر، وفي كثير من الأحيان يتجاوز الشكلان جنباً إلى جنب لممارسة كل أنواع الجرائم، كما أظهرت اعترافات رئيس الوزراء القطري حمد بن جاسم على تلفزيون قطر الرسمي الذي قال في 27 تشرين أول الجاري إنّ الدعم العسكري الذي قدمته بلاده للجماعات المسلحة في سورية، كان يذهب إلى تركيا بالتنسيق مع الولايات المتحدة و"كل شيء

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

يرسل يتم توزيعه عن طريق القوات الأمريكية والأتراك والسعوديين“. وكما يُظهر مثال سورية، فإن المؤامرة ليست قدراً محتوماً لا يُرد، بل هي مخطط معادٍ لا بد من حشد قواها وشحذ هممنا وتجنيد عقولنا وقلوبنا لكي نهزمه. والعامل الداخلي لا غنى عنه لمواجهة المؤامرة الخارجية التي لا تنفذ لولا الشقوق في صفوفنا، ومشاكلنا ليست كلها من صناعة الغرب، ولكن لا شك، منذ محمد علي باشا والتدخل الغربي المباشر ضده، ومنذ عبد الناصر وصادق حسين وبشار الأسد، أن الغرب بذل جهداً إضافياً في منع وحدتنا ونهضتنا، وفي تدمير أي حالة وحدوية نهضوية تحريرية في بلادنا بشكل مباشر أو غير مباشر.

أخيراً نقول إن الحديث عن مؤامرة لا يعني تبني أي كلام بشكل عشوائي من دون تدقيق أو توثيق، بل يعني الفهم العلمي للتاريخ وقوانينه وتناقضاته، والتخلف له الآليات وتجليات خاصة به، وكذلك التجزئة، وهي الآليات التي تعيد إنتاج نفسها في وطننا العربي، ويفهمها البعض على أنها ظروف محلية، وهي كذلك فعلاً، سوى أن التقسيمات السياسية التي كرسها الاستعمار تحافظ عليها، والتدخلات الاستعمارية تعيق تجاوزها، ومن هنا، فإن الحديث عن مؤامرة لا يعني أننا عاجزون إزاءها، ولا يعني أن نفهم التاريخ بشكل غيبي، بل يعني أننا نعيش حالة تخلف ذات مظاهر مختلفة، وأن تلك الحالة تمثل ظرفاً ذاتياً بالنسبة لنا كأمة، ولكن التخلص من هذه الحالة مرتبط بالتخلص من التجزئة والتبعية، مما يدخلنا في صدام مع قوى الهيمنة الخارجية، وفهم العلاقة الجدلية ما بين ما هو داخلي وما هو خارجي في هذه الأزمنة أبعد ما يكون عن ”الفهم التأمري للتاريخ“.

كذلك، لا يعني وصف كل عمل جماعي مجلل بالسرية بالمؤامرة من قبل المتضررين منه أن نسمح لأنفسنا بممارسة تجاوزات أخلاقية كتلك التي يمارسها أعداء الأمة وأدواتهم، وبمقدار ما يكون العدو قذراً، تكون المؤامرة قذرة من لونه، وبمقدار ما يكون ”التأمري“ مناهضاً لاحتلال أو إمبريالية أو أدواتهما، وساعياً لإحقاق عدلٍ وتحرر، بمقدار ما يفترض فينا أن نتقيد بقواعد أخلاقية نابعة من قانوننا المستند إلى مرجعية التحرر والنهضة والوحدة، فحركة التحرر تعبر عن الشعب ومصالحه، والإمبريالية والصهيونية وأدواتهما يعبرون عن مصالح فئة مستغلة طاغية، ولذلك لا يجوز أن يصبح ”تأمرينا“ وتأمريهم سيئان، وشتان ما بين المقاومين والمجرمين، حتى لو مارس كلاهما عملاً جماعياً سرياً.

المواطن العربى تحت المطرقة

بشار شخاترة



لننظر إلى الواقع العربى بشكل مقلوب، بدلاً من الانطلاق فى التحليل من الكلّ إلى الجزء، أى من الأمة إلى الفرد، لنجرب التحليل من الجزء إلى الكلّ، من الإنسان العربى إلى الأمة العربية، ونذكر قبل السير فى هذا المسار أننا لا نجترح شيئاً لم يسبق إليه أحد، أو أنّ هناك اكتشافاً فى تحليل الواقع العربى ومعالجته من منظور قومى مستجد لم يعرف من قبل، ولكنّه بالقياس للسياق الذى نتناوله هنا عادةً فإنه سيرٌ مغاير، وبذات الوقت لا بدّ من التأكيد أن الطرح بهذه الطريقة إنما هو استكمالٌ لنهج مجلة "طلقة تنوير" الدائب نحو مشروع عربى متكامل، يعالج الظواهر القائمة بين جنبات الأمة العربية بالنقد والتحليل واقترح الحلول، فهو تنمة ولبنة فى مشروع الحل القومى المنشود. كما لا يفوتنا التأكيد أننا لسنا فى معرض المعالجة الليبرالية للظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بانطلاقنا من الفرد، فليس هذا المقصود، وآخر الهموم البحث فى مناقشة الحل القومى بحلّ المشاكل الفردية أو بتبني منهجٍ محوره الفرد.

السؤال المشروع والمنطقي ضمن هذه الرؤية، ما هي المشاكل التى يعانى منها الإنسان العربى وتنتج هذا الواقع العربى البائس؟ وهل العلاقة بين المواطن العربى والأمة والوطن العربى فيما يختص بالواقع الراهن، جدلية؟ يمكن تصنيف التناقضات التى يئنّ تحت وطأتها الإنسان العربى إلى ثلاثة عناوين رئيسية وهي: تناقضات اقتصادية وسياسية ودينية، ويؤخذ بعين الاعتبار التفاعل النشط بينها

جميعاً، ومن المفيد التأكيد على أن الواقع العربى ناتجٌ فى جزئية المواطن العربى من الكيفية التى يتلقّى فيها هذا المواطن تلك التناقضات وكيف يعيد تأويلها نفسياً وعقلياً، ومن ثم كيف يخرجها إلى العلن كسلوك.

تعدّ الحالة الاقتصادية من بين أهم المحددات السلوكية التى تؤثر فى الإنسان تاركةً أثرها الواضح فى تعاطي الإنسان العربى مع مجتمعه وأتمه، ويلاحظ هنا أنّ نمط الإنتاج السائد فى الوطن العربى متفاوت، إلا أنّ السمة المشتركة أنّه نمط إنتاج متخلف والبنية الاقتصادية العربية خلّقت إنساناً غير منتج، وهذه السمة كما سنوضحها لاحقاً يمكن تحليلها من وجهة نظر نفسية اجتماعية بأنّ الإنسان المنتج، والذى يرى أثر عمله أمامه وإنتاجه واقعاً ماثلاً وله مردود، فإنّه يولد ارتباطاً معنوياً بالواقع الاقتصادى والاجتماعى والمكانى له، ويعمق من انتمائه إليه، ويبعده عن ذلّ السؤال والحاجة، ويورثه استقلالية بحيث تبدأ اللبنة الأولى للحرية، وحتماً ليس هذا هو الواقع الاقتصادى العربى، حتى فى الدول النفطية هناك مواطن عربى دخله عالٍ، لكن دون سبب منطقي ودون جهد وعمل حقيقيين سوى أنّ تلك الدول تدفع رواتب عالية لمواطنيها دون عمل حقيقي يقابل ذلك، فيما يشبه الرشوة الجماعية، مقابل مواطنٍ عربى آخر يكدح بلا مردود مالى حقيقي أو على الأقل يكفيه حاجاته. وحتى لا يفهم أنّه اتهامٌ للمواطن العربى بعدم الانتماء لوطنه وأتمه، يصحّ القول أن التأويل سابق الذكر لموضوع العمل غير المنتج يضيف شروخاً جديدة إلى جملة الشروخ العالقة فى الجدار العربى، وما يعزز وجهة النظر هذه - دون أن نعتمدها كأساس لعلاقة العربى بالوطن والأمة - أن ارتباط الإنسان العربى بالزراعة قبل انتزاعه من بيئته إلى أزمة الصفيح حول المدن كان سبباً هاماً فى تعميق الشعور الوطنى والقومى، ولعلّ الراحل العظيم عبدالناصر أدرك هذه النقطة عندما استردّ الأرض من الإقطاع وأعاد توزيعها على الفلاحين، بحيث بنى قاعدة اقتصادية اجتماعية للتوجهات الناصرية القومية والتحريرية وهذا ما عملته سورية فى عهد الراحل حافظ الأسد

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

عندما أعادت توجيه الاقتصاد بتصنيع الزراعة، مما ساهم في توطين الفلاحين وخلق منهم قوة اقتصادية اجتماعية هامة وقفت خلف توجهات سورية القومية، ويؤكد صحة هذه الجزئية الانقلاب في الموقف الشعبي من الدولة عموماً، الذي حدث إثر بعض السياسات الليبرالية في سورية بقيادة أحد رؤساء الوزارات وبعض قوى الكمبرادور قبل التخلص منها، إلا أنها تركت أثراً خطيراً في هجرة سكان الريف إلى أحزمة المدن الكبرى في سورية، وهو ما عززته موجات الجفاف المتلاحق وعوامل أخرى خارجية.

لعل مشكلة توزيع الثروة تُعد من أكثر المشاكل الاقتصادية تأثيراً في الواقع العربي على الإنسان العربي، ومرد ذلك لا يعود إلى نمط إنتاج رأسمالي، يتمثل برأس المال الذي يسيطر على وسائل الإنتاج ويحول قوة العمل إلى سلعة تخضع للعرض والطلب (في ظل وفرة في العمالة)، إنما مرده إلى بنية اقتصادية مشوهة لم تمتلك المقدرة على إحداث نقلة في القاعدة الاجتماعية. فبين العمل الموسمي وصولاً إلى البنية الاقتصادية التابعة للقطب الرأسمالي العالمي، إلى تخلف علاقات الإنتاج وتشوه شكلها بما يعيق تطور القوى العاملة في اتجاهها الصحيح، تصبح البنية الرأسمالية للاقتصاد العربي نسخة مقلدة وتابعة للنمط الرأسمالي الغربي فحسب، وفي جو التطور الهائل في بنية الرأسمالية نفسها وهجرة رأس المال إلى مناطق أقل كلفة في الإنتاج وأكثر ربحاً، يغدو الواقع الاقتصادي العربي بلا هوية، ويصبح خارج إطار المنظومة القانونية التي يفترض أنها تسيطر عليه، فإذا كانت الرأسمالية العالمية تزداد ضراوة مع وجود أنظمة قانونية ومحاسبية في بلادها، فما عسانا نقول عن القوى الاقتصادية المهيمنة في بلادنا والرقابة غير موجودة ولا يوجد صرامة في تطبيق القانون! فهل يتوقع قيام قوى تقدمية في الوطن العربي كالتّي خاضت معركة مع الاستعمار وذيوله (الرأسمالية) في إطار ما عُرف بموجات وحركات التحرر!؟

وفي مناخ توخّش الرأسمالية الذي أتى على موطنها الأم في الغرب، بما أنتجه وبينتجه من نزعات التطرف في المجتمعات العربية تجاه الأمم الأخرى أو باتجاه الرأسمالية ذاتها وحواضنها السياسية، فإذا جاز تطبيق هذا التحليل على واقع الإنسان العربي بما أنه قوة عاملة، يلاحظ جنوح الإنسان العربي عموماً وقواه العاملة خصوصاً، وأغلبيته في مرحلة الشباب، نحو التطرف والتوخّش، وإذا أخذنا بالاعتبار الحضور القوي للدين في حياة المجتمع العربي تصبح الحالة مركبة من أكثر من مستوى بين جنوح نحو التمرد على الواقع الاقتصادي الطاحن وبين التأويل الديني لهذا التطرف، فالأمر المنطقي أن يتحوّل الإنسان نحو العنف للتعبير عن احتجاجه؛ فقد يتحوّل إلى مناضل أو مجرم، ولكنه يتداخل الدين في الموضوع أصبح عنفاً من نوع آخر يريد أن يخلص الأمة من أزمتها ليس الاقتصادية فحسب، بل تتعداها إلى كل شيء وتحت عنوان ديني.

على أنه ليس بالمطلق يمكن تثبيت الحكم السابق، بدليل أنّ الأغلبية لم تتحول نحو التطرف الديني، وذلك لأن الأغلبية تمتلك توازناً نفسياً وأخلاقياً وحتى دينياً، لكن هذا لا يعني أنّ الأغلبية لا تحمل أعراض التطرف وإن كانت لا تمارسه، فهي تشكل بهذه الأعراض حاضنة دافئة للمصابين بالمرض.

على هذا الأساس يمكن الارتقاء إلى درجة أخرى من محاولة الفهم، فالإنسان العربي المُصاب أو الحامل لداء التطرف مهياً لأن يتدرج نحو مستنقع التطرف والتمذهب، لذلك يمكن أن نسأل كيف سينعكس هذا التأثير على الأمة وقضاياها؟ وما مصير الحلّ الوحدوي المقترض أن ينهض به الإنسان العربي؟

لا شك أنّ حالة التطرف المذهبي لن تسير إلا في الاتجاه المعاكس لمسيرة النهوض القومي، وهذا ما يلاحظ من انخراط آلاف الشباب العرب تحت مظلة التنظيمات الإرهابية المتعصبة، وأين أصبحت أولوية العمل في الساحة العربية؟! فحالة الانحراف في فهم قوانين الصراع الطبقي وتخلف تطور البنية الاقتصادية العربية وليس تبعيتها فقط، أنتج حالة تشوه الوعي وتكوّن وعي مضاد للقومية العربية وعي مضاد لاجتراح الحلّ، فالذي حدث أن متسلسلة التخلف تدهورت بالوعي العربي نحو مسار يشبه إلى حد بعيد السير نحو الهاوية والانتحار.

وهنا يجب أن نتوقف عند المعالجة بضرورة توجيه أنظار المجتمع العربي إلى أنّ الواقع الاقتصادي العربي حوّل المواطن العربي إلى مستهلك ودودة قارضة للسلع التي لا ينتجها أصلاً بل يستوردها ويبالغ في ذلك لدرجة يتحول معها إلى آلة وظيفتها الإنفاق أكثر من الإنتاج، وبذات الوقت توجد أدوات اقتصادية مهيمنة على القرار الاقتصادي العربي في الداخل العربي لم تعد تملك «شرف» وصفها بالكمبرادور، لأنها أصبحت ممراً للنهب وسحب العملة وجسراً لعبور السلع وغطاء للنهب المالي بالتحالف مع السلطات القائمة لتنتج بؤساً وفقراً.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

تتلخص مواجهة وتصفية هذه القوى التابعة في إطار تعميم الوعي أن الصراع مع هذه الأدوات ومن خلفها لا مع الوطن أو مع مكوناته، وأن عنوان هذا الصراع ليس الطوائف أو المذاهب، وأنه ليس سبب هذا الواقع البعد عن الدين، حتى لا ينحرف بناء الوعي بالمشكلة وحلها إلى وعي مضاد يفاقم المشكلة بسبب الانحراف عن الطريق الصحيح في التحليل والاستنتاج.

وأما النوع الثاني من التناقضات التي تواجه المواطن العربي فهي تناقضات سياسية، ويعود هذا التناقض إلى العديد من الأسباب منها الافتقار إلى التجربة التاريخية وتراكم الخبرات، فالدولة في الواقع العربي - بما تعنيه من ممارسة عملية سياسياً وقانونياً واقتصادياً وتفاعلاً مع المجتمع - غائبة منذ قرون طويلة، أقلها منذ أربعة قرون مع احتلال العثمانيين الأتراك للوطن العربي. فالحياة السياسية لا تزال ناشئة ومعظمها نشأت بعد الحرب العالمية الأولى وكانت تحت الاحتلال "واستقلت" بعد الحرب العالمية الثانية، فهذا العمر قصير نسبياً مع كثرة الاضطرابات السياسية بما لا يسمح بخلق التطور المنطقي لواقع الحياة السياسية العربية، ناهيك عن أن هذا الواقع هو واقع التجزئة، أي أننا أمام واقع سياسي مبتور أعرج مشوه لا يمكن أن يعبر عن حياة سياسية طبيعية ومنطقية قابلة للتطور نحو أفق قومية تقدمية ديمقراطية شعبية، إضافة إلى بصمات التخلف العثماني في الإدارة التي لا تزال مترسبة في الوعي الجمعي العربي، والنتيجة أن الواقع السياسي الذي تناولناه هنا أنتج تطوراً سياسياً رجعيًا، فالطابع الغالب للحياة السياسية العربية أنها ارتدادية نحو انتماء قبلي عشائري أو طائفي نظراً للغيب الواضح للإطار الطبيعي والمنطقي للحياة السياسية العربية، وهو الإطار العربي لا إطارات التجزئة القطرية.

الحالة السياسية العربية الراهنة تعاطي معها المواطن العربي بطريقتها القبلية الطائفية، والتي تعاملت معه في قالب من التعسف والملاحقة واختزال العمل السياسي في أضيق إطار، فبعد أن حوّلت السلطات السياسية المواطن إلى تابع اقتصادي لها ووضعته في إطار استهلاكي، لم يعد هناك قاعدة اجتماعية للحياة السياسية تسهم في تطور الحياة السياسية، فالواقع السياسي العربي إجمالاً واقعٌ مغلّبٌ ومسدود الأفق، لن ينتج سوى حالة من التطرف والبحث عن حلول خارج الإطار المنطقي للحل؛ حلول متوحشة واجهت الوطن بدلاً من أن تواجه من أجل الوطن.

العقم السياسي العربي فشل في إفراز الأدوات السياسية وهي الأحزاب السياسية، والمحاولات الشعبية العربية في تشكيل التنظيمات السياسية لم تنجح إلا بالقدر الذي ارتقت به إلى الواقع السياسي العربي، والنجاح نسبي بما استطاعت تلك الأحزاب اختراق واقع التجزئة، وهذا موضوعه طويل يخرج عن سياقنا هذا، لكن يمكن القول أن الحركة العربية التي يمكن أن تتصدى للدور الطبيعي في حل التناقضات في الواقع العربي لم تولد ظروف نشأتها وانطلاقها بسبب الإحباط الذي يعاني منه الإنسان العربي نتيجة لانسداد أفق العمل السياسي.

النوع الثالث من التناقضات التي تتنازع الإنسان العربي متعلقة بالدين، والإسقاط الديني على جوانب الحياة العربية المعاصرة. تبدأ المشكلة في هذا الإطار وتنتهي عند شعار "الإسلام هو الحل"، فالإنسان العربي يخضع منذ ولادته لتربية دينية صارمة تشتمل على تعاليم لا تحتمل كثيراً من التفكير والتدبر، فالإنسان بين الحلال والحرام وخلف هذا ما يزيد على الألف عام من الفتاوى والجدل الفقهي والمؤلفات والمجلدات التي لم يطلع عليها المواطن العربي وقد لا يطلع على أسسها الفقهية والردود والاختلاف حول كل ما هو حلال أو حرام.

هذا القالب ثنائي الأوجه بالقدر الذي يساهم في تعميم مكارم الأخلاق وربطها بالترهيب والترغيب، إلا أنه يحوّل الإنسان إلى كائن مسير ضمن مسار من المباحات والمحرمات التي لا تتوقف عند الفضيلة والرذيلة، بل تتطور إلى السيطرة على تفكيره وتوجهاته وانتمائه وما يشكل عليه من أمر يتكفل سدنة التحليل والتحرير بالإجابة عليه، ودون مرجعية من عقل أو فكر.

ولذلك لا بدّ من معيار موضوعي يحلّ بديلاً لمعيار الحلال والحرام الذي يبدو ظاهرياً معياراً موضوعياً، إلا أنه في حقيقته معيار شخصي يتبع رأي من يستخدمه، والمعيار المقصود هو معيار الصواب والخطأ، وهذا معيار موضوعي يقدم بديلاً عقلانياً يخرج من دائرة الهيمنة والمشخة إلى ضوابط منطقية، الحجاج فيها للعقل.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

ومن التناقضات التي تجتاح المواطن العربي في هذا المجال أنه ينطلق في التحليل والتأويل والاستنتاج من منطلق إسلاموي قد لا يكون للإسلام علاقة به في مسائل الواقع المختلفة، وفيه تحميل الدين ما لا يحتمل، وهذه الحالة النفسية والعقلية التي تشكل قاسماً مشتركاً للغالبية العظمى من العرب، والتي يتمثلون فيها موروثاً دينياً مقدساً ليس هو الجانب الذي تنقده، بل نقده الاستسلام والانقياد اللاواعي واللاعقلاني لماهية هذا الموروث، حتى يسيطر على تفكيره ويخلق حزاماً يسد كل منافذ الوعي وأعمال العقل في تعاليم هذا الموروث بإفقال باب النقد، بما يمكن وصفه بتأبيد الوعي وتحنط العقل والتعصب نظراً لما يراه الشخص من مزايا في هذا الموروث الديني، يظن أنها حكر على هذا الموروث. وبالتناوب يلاحظ الإنكار التام لفكرة أن هناك رجال دين في الإسلام وأن الإسلام دين كهنوتي، وهذه العبارات من المسلمات التي تجري على السنة العامة وتندرج في سياق تكريس الهيمنة الدينية على الناس، بحيث ترى سطوة «المشايخ» على عقول الناس بفتاوى عجيبية، تجري بينهم مجرى الدم، ودون أن يدرك البشر هذه السيطرة وهذا الإكليسوس غير المتوج، فإذا كنا قبل قليل نتحدث بتأبيد الوعي، فإنه يصح القول هنا بتأبيد الهيمنة.

لا شك أن أزمة مركبة بهذا الشكل تضغط على عقل الإنسان ولا تدع له حيزاً واسعاً من الاختيار، والحقيقة أن الخيار واحد من اثنين: الأول - الاستسلام لهذه العوامل بحيث يجد من الأسهل عليه الانسحاق خلفها تاركاً أمره لمن يوجهون دقة الواقع ويشكلون الوعي، فهذا خيار سهل وغير متعب، ويوفر على الإنسان الكثير من المتاعب. علماً أن هذا الخيار تنحاز خلفه الأغلبية الساحقة من أبناء أمتنا، ودون أن تدرك هذه الجهة أنها مستسلمة لا بل تظن أنها الفئة الناجية، وبأحسن الأحوال تظهر عليها سمات الحياد مع فيض المشاعر نحو قضايا الأمة، دون السير بعيداً نحو التطرف.

الثاني - مواجهة هذه العوامل المدمرة والسير بعكس الاتجاه العام للأغلبية المستسلمة، وهذه المواجهة العاقلة تختلف تماماً عما أوردناه في السياق أعلاه من أن هناك مواجهة تصل للإجرام أو للتطرف، ولا يمكن إدراج حالات التطرف والإجرام ضمن فكرة مواجهة تناقضات الحياة العربية، لأن الانحراف نحو العنف - سواء كان بالجريمة أو بالتطرف، وهو حالة أكثر تطوراً بحيث يسمى إرهاباً - يندرج ضمن تجليات المشكلة وأحد أعنف تعبيراتها، ولا يمكن بحال أن يصنّف ضمن قائمة الحلول، وعليه فمواجهة تناقضات الواقع العربي التي تجتاح المواطن العربي يفترض أن تدرك الواقع وتواجهه وتطرح الحل ولا تتحدر نحو الجريمة أو التطرف، لذلك أولوية الطليعة العربية نشر الوعي ووضع الإنسان العربي أمام مرآة تعري ركام الواقع الضارب الجذور في التاريخ في استعمار العقل وتثبيط الهمم، وتهيئة ظروف الثورة العربية.

تاريخية السيرة (1) – المصاير

محمد العملة

تعتمد هذه المقالة -التي أكتبها على أجزاء- إلى قراءة مسار الدعوة التي جاء بها نبي العرب محمد بن عبد الله قراءة تاريخية، وأعني هنا تفسير أحداث الدعوة المسماة "السيرة النبوية"، ولست في الحقيقة إلا ناقلاً ومهذباً لاستنتاجات جاء بها كبار المؤرخين، فلم أت هنا بجديد، إنما هي قراءة لم تجد لنفسها مكاناً أمام القراءة الكلاسيكية السائدة عن فترة زمنية غيرت وجه المنطقة العربية وجاءت بامبراطورية امتد أثرها في شرق العالم وغربه، وبدين أحدث انقلاباً في طبيعة المجتمع العربي بعمومه. ولا أعني هنا أن قراءة السيرة بمسار مختلف أمر جديد بالمعنى الحرفي، بل لكي أكون أكثر دقة، هي قراءة نقدية للسيرة السائدة المتناقلة عبر الأجيال، وبمنهجية علمية تاريخية، مع أن التاريخ كأحد العلوم الإنسانية، لا يتسم بنفس الصرامة والدقة الموجودة في علم الرياضيات مثلاً، ولا ينفلت من التأولات التي تظهر عادة لسد فجوات في أي سردية تاريخية بإطارها العام، إلا أن وظيفة المؤرخ الموضوعي هي إخراج هيكله منتظمة ومنطقية لسلسلة أحداث جرت بما توافر لديه من مصادر، دون الانحياز لمصدر أو تأويل بعينه، ولكتشف الضبابية عن فترة ما، بشكل عادل بعيد عن الأهواء.

بعد قراءة مفصلة ومتشعبة لمصادر ومراجع عديدة، أحاول هنا أن أضع ما أراه الأقرب للحقيقة، معتمداً في ذلك على كتاب مهم جداً للمؤرخ العربي التونسي "هشام جعيط"، عنوانه "تاريخية الدعوة المحمدية في مكة"، والحق أنه كتاب يُثري المكتبة العربية، وسبب الاعتماد عليه أنه يُجمل أهم الأفكار المتعلقة بموضوع المقالة، ولأنني وجدت أن تلخيص مجمل أفكار الكتاب أهم وأوضح مما كنت عازماً على كتابته في ذات السياق، خصوصاً وأن هشام جعيط يكتب عن الأمر بأسلوب "محامي الشيطان"؛ فلا ينحاز بشكل مبدئي إلى أي فكرة مهما بدت مهمة، بل يضعها تحت مجهر المؤرخ وينقدها بشكل صارم، كما أنه يذكر صراحة ما يعيب كتابات المستشرقين دون أن ينكرها بجملتها، فهو يكشف تناقضاتها، ويستفيد في نفس الوقت من المعلومات الواردة فيها، مع أنه يرى أن لا معنى لانتقاد الاستشراق ما دام العرب لم يكتبوا أو يكتشفوا ماضيهم بأنفسهم، وهو ما واجهت فيه صعوبة أثناء مراجعتي لمعظم المصادر العربية، القديمة والحديثة منها، فلم أجد مناصاً من الرجوع لمؤلفات المستشرقين، إنما بشكل حذر متوخياً كشف التضليل المدسوس فيها.

وأنا إذ أكتب في هذا الموضوع؛ فلأنني أراه مكتملاً لمواضيع أخرى تحدثت فيها بشكل عمومي عن تاريخ المنطقة العربية منذ فجر التاريخ بعيداً عن النزعات الاستشراقية، أضفت على ذلك قراءة لتاريخ العرب قبل الإسلام، في أعرفهم وعباداتهم، محاولاً كشف الصلة بينها وبين الإسلام كدين وملة، ولماذا كان العرب مادة الإسلام وما الهدف الذي جاء الإسلام ليقضي عليه في مجتمعهم، علاوة على مواضيع تشرح معنى العقل العربي مما له صلة بكل ما سبق، ولكي تكون الصورة أشد وضوحاً؛ فإن الحديث عن السيرة النبوية مهم وضروري، وقد يترتب عليه وعلى جملة المواضيع المكتوبة، مواضيع أخرى للخروج بصيغة تجديدية تعيننا في الحاضر وتفسر الماضي بمعنى صحيح. أما الهدف من كتابة المقالة فلا أضمره، ولكنني أظهره على شكل استنتاجات متناثرة بين سطور المقالة.

وأنا إذ أكتب في هذا الموضوع؛ فلأنني أراه مكتملاً لمواضيع أخرى تحدثت فيها بشكل عمومي عن تاريخ المنطقة العربية منذ فجر التاريخ بعيداً عن النزعات الاستشراقية، أضفت على ذلك قراءة لتاريخ العرب قبل الإسلام، في أعرفهم وعباداتهم، محاولاً كشف الصلة بينها وبين الإسلام كدين وملة، ولماذا كان العرب مادة الإسلام وما الهدف الذي جاء الإسلام ليقضي عليه في مجتمعهم، علاوة على مواضيع تشرح معنى العقل العربي مما له صلة بكل ما سبق، ولكي تكون الصورة أشد وضوحاً؛ فإن الحديث عن السيرة النبوية مهم وضروري، وقد يترتب عليه وعلى جملة المواضيع المكتوبة، مواضيع أخرى للخروج بصيغة تجديدية تعيننا في الحاضر وتفسر الماضي بمعنى صحيح. أما الهدف من كتابة المقالة فلا أضمره، ولكنني أظهره على شكل استنتاجات متناثرة بين سطور المقالة.

تمهيد:

السمة العامة للبحوث المكتوبة عن السيرة تتناول البنية الحضارية التي سادت قبل وخلال ظهور الإسلام، أي أنها تضع الإسلام في إطاره المجتمعي، لكن ذلك غير كافٍ لأنها لا تفسّر الدعوة أبداً. كبار المستشرقين عموماً لم يتحدثوا عن تاريخ النبي العربي أو دعوته بشكل مباشر، فنجد "نولدكه" و"بلاشير" اهتمّا بتاريخ القرآن زمانياً حسب فترات نزوله، و"تور أندريه" اهتمّ بالتأثيرات المسيحية بين ثنايا النصّ القرآني، أمّا "فلهاوزن" فتركزت أبحاثه على الوثنية العربية وتطوراتها، وآخرون مثل "غولدتزيهر" و"شاخت" كتبوا في تاريخية الحديث وبرزت المسائل الفقهية، وغيرهم الكثير من المستشرقين من أتباع المدارس المختلفة، من ألمانية أو فرنسية أو إنجلو-ساكسونية أو غيرها. على هذا المنوال تطوّرت الكتابات الاستشراقية في القرنين الماضيين، فبدأت باهتمامات أدبية قبل أن تتوجه نحو الاستشراق بشكله الأكاديمي، لكنها لم تنفلت من إطلاق أحكام أخلاقية وتفريضية مسبقة حول شخصية النبي محمد بن عبدالله، الأمر الذي بنى عليه بعض المستشرقين رؤية تاريخية ليست علمية أبداً ولا يعول عليها، بل إنّ بعضهم عرّضوا التاريخ لمعتقداتهم، فنجد "مونتغمري وات" -مثلاً- يقول أنه كمسيحي لا يؤمن بنبوة محمد بن عبد الله، وهشام جعيط يعبر عن ذلك بقوله: "نحن لا نطالب وات بعرض مواقفه الشخصية، بل على الأقل نطالبه بتفسير سيكولوجي لظاهرة محمد!"

تلتصق الحقبة الزمنية للسيرة النبوية بالماورائي والمعتقدات الإيمانية، مما يطرح الإجابة عن سؤال "ما سبب فُقر المحتوى العربي في هذا الموضوع من زاوية التاريخ؟"، ويفسّر لماذا تجد التحليلات التاريخية عادة الاحتراز والحذر من جهة، والاعتراضات من جهة أخرى، خصوصاً وأنا كعرب نعاني من أزمة هوية حقيقية وحصار داخلي وآخر خارجي، وهي كلها أمور تجعل الكتابة في السيرة أو ما تعلق بتاريخ الإسلام أمراً صعباً، يضيف هشام جعيط عليه ما معناه: قد لا يهتم كل هذا المؤمن العادي، الذي يبحث من خلال النصوص المتعلقة بمعتقدده عن طريق يسلكه في الحياة لينجو من خلاله، ولا يلتفت إلى وقائع مضت في نفس النص، وهذا موقف الإنسان من التاريخ بشكل عام، وهو مخالف لموقف العلم الذي يتعالى على الحياة الإنسانية.

الأساس التاريخي هو أساس علمي بالضرورة، والعلم يحاول تفسير الأمور لا الحكم عليها، ويهتمّ بالظواهر لا الحقائق العليا "المقدّسة"، مما يولّد قناعة أن الهدف من هذه البحوث ليس المسّ بالمقدسات أو إقامة أحكام نهائية بشأنها.

المنهجية التاريخية تتناول أحداثاً وقعت في زمان ومكان ما، فمجالها ليس "الميتافيزيقيا" أو الماوراء، وإن حصل تجاوز لهذه النقطة بإدخال الماوراء في كتابة التاريخ، فإن مؤرخ البوذية يصبح بوذياً أو معارضاً لها، ومؤرخ المسيحية مسيحياً أو معارضاً لها، وهكذا دواليك!

ما يعني المؤرخ هنا، هو تناول عموم الأحداث بالوصف والتحليل والبحث في تطوراتها، هادفاً وضعها في تلك اللحظة التاريخية دون الالتزام بالمعتقدات الإيمانية، لأنّ البحث دون هذا الشرط يغدو باطلاً، وزيادة على النقطة السابقة، لا يكون التاريخ علمياً ما لم ينظر لحدث ما على أنه جزء من سلسلة أحداث سبقته وأخرى تلتوه، وما لم يكن الحدّث منطقي الوقوع من وجهة نظر عقلية، وأخيراً، الالتزام بما توافر من مصادر وأثار ومراجع، وترك الانتقائية بينها بهدف إثبات رأي وإسقاط رأي نقيض له.

نواة المصادر:

الإسلام، كما كل الأديان والرسالات القديمة، يحمل آثاراً تشكّل مصادر تأسيسية لمعرفته، وما يميّزه عن غيره أنّ المصادر المتوافرة حول مراحل التأسيسية الأولى كثيرة مقارنة مع الديانات الكبرى في المعمورة، إلا أنه لا يمكن اعتماد كل المصادر وتغليب رواية على رواية حسب الأهواء أو لإثبات فكرة ما، كما يفعل المؤرخون الجدد.

الصعوبات في تاريخ الأديان عموماً تظهر في سببين، الأول أنها موعلة في القَدَم، والثاني كمية التحريفات التي تدخل في نصوص وأصول ذلك الدين بمجرد أن يتأسس حوله تقليد يتبعه الناس، بعد أن تتكون هالة قدسيّة حول الشخص المؤسس لهذه الرسالة أو تلك، وتُنسب له لاحقاً مجموعة من النصوص.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

المطلوب إذن هو ضرورة تصديق ونقد ما تبقى من نوى الرسائل المختلفة، واستثناء القشور المنحولة في جسمها، لنصل إلى سرديّة معقولة قليلة الثغرات، وبالتالي تفسير المرحلة التأسيسية لأي دين وملة بمنهج تاريخي.

في موضوعنا، أي السيرة النبوية، سنرجع إلى مصدرين أساسيين، مؤلفات السيرة القديمة كمصدر ثانٍ، تحديداً ما كُتب منذ منتصف القرن الثاني الهجري ولنهاية القرن الثالث، وسأشرح لاحقاً، في الأجزاء القادمة، سبب الاعتماد عليها وأسباب استثناء غيرها.

أما المصدر الأول الأساسي فهو القرآن الكريم، وسيخطر في بال القارئ تساؤلٌ بديهي، لماذا القرآن؟!

حسناً، لا علاقة للجواب بالمعتقدات الإيمانية، ولكنني ألخص الإجابة بالأسباب التي أوردتها "هشام جعيط" وراء اعتماد القرآن كنواة للمصادر المتعلقة بسيرة النبي العربي محمد بن عبد الله، بل اعتبره أن المؤرخ للإسلام محظوظ جداً بالنسبة للمؤرخين الآخرين:

1. القرآن كنص، يتضمّن محتوى الرسالة، وهو طويل وممتد قياساً بما احتفظ به لنا من قبل بخصوص شخص كالمسيح أو بوذا أو حتى زردشت، ولناخذ مثلاً قصة النبي عيسى كما ذكرت في الأناجيل، وهي قصة مرتبطة باختلاقات أسطورية حول ميلاده وسيرته وانبعاثه، من حيث أن ظروف موته هي التي أسست لإعادة تركيب ميلاده وحياته، وهذا بصرف النظر عن تاريخ كتابة الأناجيل الموجودة بين يدينا. وكذا الحال في "الغاط" المعبرة عن عقيدة توحيدية وهي من تأليف زردشت، والتي جرى لاحقاً إقحامها في "الأفيستا" المتأخرة زمنياً عنها، وهو ما نجد له شبيهاً في سفر التكوين عن النبي موسى، والمكتوب بعده بقرون، ولا يعني ذلك التطرف بالقول بعدم وجود هؤلاء الأشخاص تاريخياً، إذ أنّ الأفكار الجوهرية الواردة في هذه النصوص لا تتأتى من عمل أشخاص عاديين.

2. من غير الصحيح القول أنّ القرآن لا يتضمّن الكثير عن التاريخ النبوي، فقسّم كبيرٌ من سُور الفترة المكية تورد إشارات ثمينة عن طفولة النبي ورؤاه ونزول الوحي، وتستعرض صراعه مع مشركي قريش والجدالات فيما بينهم. هذا ونحن نتحدث عن سُور الفترة المكية الفقيرة بالتفاصيل مقارنة بسُور الفترة المدنية التي استقام أمر العقيدة فيها، واقتربت أكثر من التاريخ بعد تأسيس مجتمع المدينة في يثرب.

3. أنّ القرآن يفسّح بوضوح عن تطور محتوى رسالة الإسلام، مما يلمس بشكل مباشر سيرة النبي، فنرى في القرآن انغماساً في تاريخية الدعوة التي أفصح النبي عنها إلى محيطه في مكة، وهذا كلّه يعطيه طابعاً موضوعياً تاريخياً.

4. أنّ القرآن يفصح عن ذاته ويعطي هوية واضحة لمحتواه وأفكاره، وينطق بدعوته.

5. تزامن النص القرآني مع فترة النبي، وإثباته المادي في مصحف قريب العهد منه يمثّل تماماً ما دعا إليه النبي العربي في محيطه، ومن المستبعد أنّ النبي لم يلتفت لتدوينه في حياته، كون هذا الكتاب (أي القرآن) أصبح أساساً للتشريع والأصالة، وبالتالي استبعاد ما يقوله البعض أنّ النصّ القرآني حُذفت منه القليل أو الكثير لمقاصد سياسية أو غيرها.

6. اللجوء التاريخي إلى القرآن لا يعطي فقط تفاصيل عن وقائع معينة، بل يثبتها، مما يجعل رسم مسار دعوة النبي العربي أمراً ممكناً.

يرى "هشام جعيط" أنّ مصحف عثمان الموجود بين أيدينا هو الأصحّ والأقدم، وإنّ ثبوت وجود مصاحف أخرى، فإنّ الطبري في تاريخه لا يذكر إلا أن رواة هذه المصاحف احتفظوا ببعض أجزائها وبإقسام قليلة منها، فلا قيمة لها أمام النصّ العثماني، وكل ما سجّله "أرثر جيفري" في كتابه عن تاريخية القرآن وما أخذ عن هذه المصاحف الضائعة، من بدائل الكلمات والآيات، لا يُعتدّ به ولا يُبنى عليه، بل ينمّ عن جهلٍ بمفردات اللغة العربية وتراكيبها.

لقد شكَّك بعض المستشرقين في أن يكون القرآن موضوعاً في القرن السابع للميلاد، واعتبروا تاريخ تحريره في القرن الثامن خلال فترة الدولة العباسية، والحقيقة أنَّ هذا لا يصمد أمام الفحص التاريخي لأسباب عدَّة، أولها ما تمَّ اكتشافه في صنعاء اليمنية لمصاحف تعود للفترة الأموية، تشبه كثيراً المصحف الذي بين أيدينا اليوم، وثانياً، كيف لإمبراطورية -كالدولة العباسية- قامت على مرجعية النص القرآني في أساسها، وعلى أساس القرى من الرسول أن تبادر إلى إعادة تحرير المحتوى القرآني؟ وثالثاً، أن العرب من المسلمين في حواضر الجزيرة العربية الشهيرة ونواحي الشام والعراق يعرفون النص القرآني على الأقل من خلال الصلاة، وإن صحَّ أن المصاحف الموجودة هي من القرن الثامن الميلادي، فلا يعني ذلك شيئاً إلا أن تكون الكتب مستنسخة جيلاً بعد جيل، فيضيع المصحف القديم لفائدة الجديد. ثم إنَّ النص القرآني له معجمه الموحد وأسلوبه الذي لا يشبه أبداً الشعر والنثر في القرن الثامن الميلادي، والأهم أنَّه يحمل في طياته عناصر مهمة عن العهد الجاهلي صارت في عداد النسيان وصعبت تفسيرها. وأخيراً، من المستحيل المساس بفحوى النص الذي يؤمن به المسلمون على أنه كلام الله بعد قرن من الزمان دون زلزال قوي لم يبق لنا منه التاريخ شيئاً، لذلك اعتبرنا القرآن المصدر الأساسي لتاريخ وتفسير مسار الدعوة.

أما كتب السيرة، فلها حديثٌ آخر.

يتبع..

شخصية العدد: عروبة صلاح الدين الأيوبي

نسرین الصغیر

ما هي العروبة، وكيف يمكن أن نقول إن فلاناً عربي وفلاناً ليس بعربي؟ فإذا نظرنا للعوامل والمؤثرات، المادية منها والفكرية، التي أنتجت وحدة هوية الجماعة البشرية التي اتخذت الوطن العربي مستقراً لها، لتبرز القسمة القومية التي ربطت هذه الجماعة برباط قومي، فأصبح لها من قسمة القومية وشروطها: (أرض مشتركة، لغة مشتركة، تكوين نفسي مشترك وسوق تجارية واحدة واقتصاد متحد) "معنى القومية العربية/ د. محمد عمارة"

العروبة ليست عروبة العرق أو النسب بل هي عروبة الهوية، ونظرية العرق الصافي والنسب ظهرت في أوروبا وهي نظرية شوفينية، فنحن القوميون العرب لا نؤمن بهذه النظرية، والعروبة تم تعريفها في أكثر من مرجع قومي معروف على أنها عروبة الجغرافية المشتركة، اللغة المشتركة، والتاريخ المشترك.

إذن نحن لسنا من جماعة النسب والأنساب، بل من جماعة الثقافة العربية المنفتحة التي

تستوعب من الأنساب المختلفة، وإذا رغبت في البحث عن عروبة أو كردية صلاح الدين الأيوبي سنذهب لما دون في التاريخ حيث اختلفت الروايات، فهناك من نسب صلاح الدين الأيوبي لبني عوف، أي عربي النسب، وهناك من نسبه لبني أمية أيضاً، أي عربي النسب، وقد نقلت الروايات أن الأيوبيين نزلوا على القبائل الكردية وتزوجوا منهم لكنهم عرب الهوية والأصل، وتوجد روايات تتحدث عن أن أصل الأيوبيين أكراد، إذن اختلفت الروايات المنقولة لنا من مئات السنين. كم يوجد عرباً اغتربوا وهاجروا وأنكروا هويتهم العربية حيث أن أبناءهم الآن لم يعودوا يتقنون اللغة العربية لا كتابة ولا قراءة.

لنذهب لتاريخ ونشأة صلاح الدين لنرى هل هو عربي الهوية أم غير ذلك؟

وُلد صلاح الدين الأيوبي في مدينة تكريت العراقية العربية عام 1138م وانتقل مع والده إلى الموصل التي كانت تحت حكم عماد الدين زنكي، ومن ثم انتقل إلى بعلبك وبعدها انتقل لدمشق حيث تربى وترعرع وعاش طفولته. درس صلاح الدين العلوم الفقهية وكان شديد الشغف بها، وحفظ الدواوين ومن بينها ديوان الحماسة لأبي تمام، وكان مُطلعاً على تاريخ العرب والسير الذاتية، وهو قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن تحت راية الخلافة العباسية.

أهم إنجازاته:

- بنى قلعة صلاح الدين الأيوبي في القاهرة.
- قام بإحاطة القاهرة بسور حصين لحمايتها من الهجمات الإفرنجية والغزو الصليبي.
- كان بعيد النظر فأعطى الصحراء اهتماماً كالمدينة، فقام ببناء قلعة الجندي في سيناء التي تشرف على الطريق التجاري.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

- قام بتحرير بلاد ما بين النهرين من السيطرة الإفرنجية عليها ليفرّ الإفرنج إلى قراها واستطاع تحرير مُدنها الكبيرة.

- في عام 1187م قام بتحرير القدس من الصليبيين بعد معركة حطين.

- استطاع أن يضمّ مدينة حلب إلى المناطق الأيوبية عام 1183م بعد أن عقد اتفاقاً مع عماد الدين زنكي على تبادل الأراضي، وقد نصّ الاتفاق على أن يقوم صلاح الدين الأيوبي بإرجاع أراضي سنجار والرقّة وسروج إلى سيطرة عماد الدين زنكي مقابل تنازل الأخير عن مدينة حلب لصلاح الدين بالإضافة إلى مساندة عماد الدين زنكي لصلاح الدين في حربه ضد الفرنجة.

- وحدّ الولايات العربية، بعد أن مُزقت في أعقاب الصليبيين الذين استعمروها قرابة 88 عاماً، تحت لوائه وقيادته وهي ولايات مصر واليمن وسورية والحجاز و تهامة، وبالتالي أصبح يحيط بيت المقدس بدولة قوية مترابطة تستطيع أن تساعد على تحريرها من الاستعمار الإفرنجي.

- نجح في تحرير مدن عديدة من بلاد الشام كانت بيد الصليبيين وفي مقدمتها مدن الساحل الشامي التي كانت تُعد من أهم مراكز الفرنجة.

كانت المواجهة مع الملك ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ أنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مرض صلاح الدين بالحمّى الصفراوية عام 1193م، وأصابه أرق فلم ينم الليل إلا قليلاً، وأخذ المرض يشتد وييزيد، حتى قال طبيبه الخاص، أنّ أجل السلطان أصبح قاب قوسين أو أدنى، واستمر المرض يشتد حتى انتهى به إلى غاية الضعف، واشتد عليه المرض حتى ينس الأطباء من حاله وتوفي صلاح الدين فجر يوم الأربعاء في 4 آذار سنة 1193م، الموافق فيه 27 صفر سنة 589 هـ عن عمر يناهز السابعة والخمسين عاماً، ودُفن بعد صلاة عصر ذلك اليوم في المدرسة العزيزية قرب المسجد الأموي في دمشق، إلى جوار الملك نور الدين زنكي.

وصفه مالكم كميرون بأنه "رجل لا يقل شأنه عن شأن نابليون بل يحق له حكم العالم الشرقي عن جدارة واستحقاق"، كما أشار المؤرخ الإنجليزي اميروتو إلى ما قام به صلاح الدين من إنجازات ووصفه بأنه "أعظم شخصية سياسية وعسكرية في عهد الحروب الصليبية".

كُتبت هذه المقالة للتأكيد على عروبة صلاح الدين الأيوبي حتى لا يتاجر بعض الأكراد (وبعض الإسلام السياسي) باسمه في وقتنا الحالي وهم يفككون ما وحدّه صلاح الدين الأيوبي العربي بهويته وثقافته، سواءً كان عربي الأصل أم لا. ورغم كل هذا لن ننسى أنّ من يعمل يخطئ، وأن صلاح الدين أخطأ أكثر من مرة كان أولها وأكبرها عندما أجهز على دولة عربية في مصر هي الدولة الفاطمية وقام بالقضاء عليها بعد استمرارها 262 سنة. كما أنّ صلاح الدين نشر نسخة متشددة من التفسير الديني (لا تصل لشيء مما وصل له متشددو القرن الواحد والعشرين طبعاً) في جو كان يتسم بالكثير من الانفتاح الديني والثقافي في بلادنا.

النقطة الثانية أنه قسّم دولته قبل وفاته بين أولاده وأفراد عائلته بطريقة الوراثة الإقطاعية، فجعل إمارة دمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، وأوصى له بالسلطنة، وجعل الديار المصرية لولده العزيز عثمان، وإمارة حلب لولده الظاهر غازي غياث الدين، وترك الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدانا كثيرة مثل قاطع الفرات لأخيه العادل، وحماة لابن أخيه محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة وغيرها لحفيد عمه شيركوه، أسد الدين شيركوه بن ناصر، واليمن بمعاقله ومخالفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين، ولم يلبث الخلاف أن دبّ بين أولاد صلاح الدين، مما جعل عمّهم العادل يعزلهم ويقوم بتوحيد البيت الأيوبي تحت رايته، كما فعل صلاح الدين من قبل.

مدينة عربية: سرت الليبية

فارس سعادة



تقع مدينة سرت الليبية على الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وتشرف على "خليج سرت" أو "السدرة"، وتتوسط مدينة سرت الحالية الطريق بين أكبر مدينتين في ليبيا؛ طرابلس العاصمة وبنغازي شمالاً على الطريق الساحلي، وتبعد المدينة عن طرابلس الغرب بحوالي 450 كم. وبسبب هذا الموقع الجغرافي المهم الذي يشرف على أحد أهم موانئ الجماهيرية الشعبية الليبية، تعرّضت سرت عبر تاريخها الحديث، أي بعد اكتشاف النفط، للكثير من النزاعات أهمها المواجهات العسكرية بين الجيش الوطني الليبي والولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب الباردة خلال القرن المنصرم.

أسطورة الأخوين الفينيقيين

فداءً لمدينة قرطاجنة وأرضها، قام التوأمان "فليبي" بتقديم روحيهما بالقرب من مدينة سرت الحالية، وتقول الأسطورة: إبان الصراع الذي كان قائماً بين الإغريق وما بقي من أهل قرطاجنة الغائبة على رسم الحدود بين الدولتين، وتمّ الاتفاق على إجراء سباق "ماراثوني" بين الدولتين الأعداء ومثل الأخوان "فليبي" قرطاجنة وكانت نقطة الانطلاق من آخر حدود سواحل دولة قرطاجنة على الساحل، أما الإغريق فقد كانت من آخر حدود "قورينا"

شرقاً على الساحل الليبي واستطاع الأخوان "فليبي" الوصول لأكبر قدر من الأراضي على الساحل وقطع مسافة أكبر بكثير من المسافة التي قطعها العداؤون الإغريق. إلا أن الإغريق أعتزوا على النتيجة فقام الأخوان "فليبي" بدفن نفسيهما أحياء دليلاً على نزاهة السباق وعدم التلاعب بالنتيجة. وافق الإغريق على ذلك وانتهت مشكلة ترسيم حدود الدولتين. وتمّ تخليد ذكرى الأخوين الفينيقيين من خلال قوس تذكاري ومن ثم تمثالين من النحاس. ومن الجدير بالذكر أن التمثالين تمّت سرقتهما من قبل "داعش" في العام 2015 خلال الفوضى التي سببتها الحرب التي شنتها حلف الناتو ضد الجماهيرية في العام 2011.

سرت الحديثة

تمّ إنشاء مدينة سرت الحديثة خلال نهاية القرن التاسع عشر من قبل الوالي على طرابلس أحمد راسم باشا، ولكنها لم تكن سوى مدينة صغيرة فيها بعض المباني الحكومية وبعض البيوت للموظفين والسكان المحليين. تم احتلال المدينة من قبل الاستعمار الإيطالي في العام 1912م، وقد شهدت مدينة سرت عدة معارك تاريخية ضد الاحتلال الإيطالي وأشهر هذه المعارك هي معركة القرصايبية 1915 التي شهدت أول وحدة وطنية حديثة بين الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي وكانت نصراً مؤزراً للمقاومة الليبية في العصر الحديث وكان الجنرال الإيطالي امياني عنوان الهزيمة في تلك المعركة وقبائل ليبيا هي عنوان الانتصار. وفي العام 1922 تمّ عقد أول مؤتمر للوحدة الليبية لكي يرسم نهاية الاحتلال الإيطالي.

التكوين الاجتماعي لمدينة سرت تكوين قبلي محلي، وأشهر القبائل التي سكنت المدينة هي قبائل القذاذفة، أولاد سليمان، الفرجان، المحاميد، الجماعات، العمامرة وبعض قبائل البربر العربية الصغيرة.



وقد شهدت المدينة صراعاتٍ قبليةً منذ القرن السابع عشر الميلادي وحروباً بين هذه القبائل من جهة وبين الاحتلال التركي العثماني إلى أن تمّ احتلال المدينة من قبل الطليان، فكانت المدينة مهداً للثورة والمقاومة وصولاً إلى العام 1969 عندما قام الضباط الأحرار بقيادة القائد الشهيد معمر القذافي بالانقلاب على الحكم الملكي وطرد القواعد الأمريكية والبريطانية في ليبيا. هنا أصبحت مدينة سرت مهداً لكل ما هو ثوري، فمن أرضها خرجت قيادات ليبيا الحديثة العروبية وفيها تمّ إنشاء جامعة سرت وميناء سرت وكانت ممراً للنهر الصناعي العظيم. وفي عام 1999 تم إعلان الاتحاد الإفريقي لكي يكون تكتلاً في مواجهة السيطرة الغربية على القارة الإفريقية.

نبذة تاريخية عن مدينة سرت القديمة

بدأت المدينة تكتسب أهميتها من خلال السيطرة الفينيقية على ليبيا خلال الألفية الأولى قبل الميلاد فقد استوطن الفينيقيون العرب ليبيا وتحديداً مدينة سرت التي كانت قرية فينيقية اسمها «كاراكس». الاسم يعني غالباً بالمكان الحصين أي من الفعل «كرك» الفينيقي. وقد كانت منطقة سرت تقع على إحدى طرق التجارة الفينيقية البحرية والبرية، وأهم هذه الطرق هو الطريق الصحراوي المؤدي إلى (جرمة وسبها وهون عبر جبال السودان

ودان إلى سرت). وهناك الطريق الساحلي الفينيقي الذي يربط ليبيا عبر مدن سرت وطرابلس بقرطاجة نفسها في تونس. والاسم «يوفرانتا» أيضاً اسم فينيقي يدل على مدينة سرت، فالمدينة الآن توسّعت بحيث تضم أكثر من قرية ومدينة قديمة ومنها المدينة الإسلامية القديمة. لقد حَفَّت نجم المدينة بعد سيطرة «البطالمة» الإغريق على مصر إذ أنهم في حدود منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، استطاعوا مدّ نفوذهم لخليج سرت على حساب الفينيقيين في قرطاجة التي سقطت وحرقت على يد الرومان في العام 146 قبل الميلاد.

استوعبت المدينة المهاجرين من شرق سواحل البحر المتوسط وكانت كغيرها من مدن شمال إفريقيا العربية نموذجاً للعيش المشترك بين أهالي آسيا العربية وإفريقيا العربية، إذ أنّ المدينة وخليجها أصبحا أحد أهم موانئ المنطقة. ولم تعد المدينة إلى أوراق التاريخ إلا خلال الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي على يد عمرو بن العاص الذي استخدم تحصينات الرومان على أرض المدينة المهجورة لتسهيل فتحه لإفريقية «تونس» ومن ثم أصبحت مركزاً رئيسياً لتموين جيوش الفتح وصولاً إلى القرن العاشر الميلادي على يد العبيديين «الفاطميين» الذين استخدموا المدينة بشكل كبير كممنطقة ارتكاز عسكري للتقرب من مصر والسيطرة عليها. وتبعد المدينة الإسلامية حوالي 55 كم عن المدينة الحالية وقد ذكرها الرحالة والمؤرخون العرب من ابن حوقل والبكري بأنها كانت مدينة حصينة ومسورة وفيها مسجد جامع كبير ولها ثلاثة أبواب أحدها باب بحري صغير يطل على الخليج. أما في الفترة العثمانية فقد كانت المدينة صغيرة فيها قصر سمي بقصر الزعفران أو قصر سرت والذي بني حوالي العام 1842م.

سرت تحت القصف

في شهر شباط من العام 2011 قامت الإمبريالية الغربية بتشغيل جردانها في المدن الليبية لنشر الفوضى والذعر بين أبناء الشعب العربي الليبي عبر إشاعات وقتل عشوائيين واتهام قوات الأمن والجيش الليبي بارتكابها. وقد سجلت مدينة سرت، كما الكثير من المدن الليبية، مقاومة شرسة من قبل الجيش الوطني الليبي والمناضلين الليبيين الذين رفضوا

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

الرضوخ لحلف الناتو والرجعية العربية مقاومة شرسة دامت ثمانية أشهر متواصلة تحت القصف البريطاني والفرنسي والتركي والرجعي العربي. وقد سجّل الجيش الوطني الليبي انتصارات عدة على مرتزقة الناتو في سرت تحديداً ودافعوا عنها حتى الرمق الأخير في الوقت الذي لم يقف معهم إلا قلة قليلة في العالم من بينهم الراحل هوغو تشافيز والدولة العربية السورية وكوبا. وقد تمّ ارتكاب العديد من المجازر في مدينة سرت ضد أهلها بسبب موقفهم الوطني الشجاع وتمّ تدمير المدينة بسبب قصف الناتو الإجرامي والمعارك التي شهدتها المدينة خلال ثمانية أشهر.

سرت تحتضن الشهداء

في العشرين من تشرين أول من العام ٢٠١١ قامت طائرات الناتو بقصف رتل عسكري للجيش الوطني الليبي استشهد على إثره القائد الشهيد معمر القذافي ووزير الدفاع أبو بكر يونس والبطل المعتصم بالله القذافي رحمهم الله على أرض مدينة سرت التي قاوم أهلها الناتو أشد مقاومة حتى آخر قطرة دم. ولد على أرضها الشهيد معمر القذافي ورحل على أرضها وهو يقاتل حتى الشهادة. هكذا هم أهل «كاراكس» العربية الفينيقية أهل حضارة ومقاومة ودفاع عن الهوية التاريخية للأرض وأهلها.

وها هي المدينة الآن تحاول العودة إلى سكة النضال والثورة الشعبية عبر أهلها وكل أحرار ليبيا رغم كل السواد الذي يعمّ من سيطرة مجرمي «داعش» على المدينة قبل أعوام ومن ثم تحريرها على يد الجيش الليبي، تعود عبر الوحدة الوطنية التي تمثلها المدينة بتاريخها الوطني المقاوم ومن خلال وعي أبناء المدينة بأن ليبيا موحدة لهم لا للرجعيين والغرب.

*سرتاه رفقا بالحبیب المرهق
وتوددي لعشيق رملك أشفقي
سرتاه جنتك
و الجياد .. عوانس
و سروجها .. قمم
المراتب ترتقي
فكليب .. قلبك
قد تهلهل ... زيره

قصيدة سرت: شاعر مجهول

الصفحة الثقافية: جان شمعون، سينمائي على جبهات القتال

معاوية موسى



ربما لا نستطيع نحن أبناء هذا الجيل الكتابة والتوثيق وامتلاك الموقف الثقافي الكافي للإشارة لتجربة الفنان والمخرج العربي جان شمعون، الذي رحل في التاسع من آب 2016، تاركاً إرثاً سينمائياً عريقاً يستحق أن تُفرد له مساحات واسعة من التغطية الإعلامية والكتابية، وهي تجربة سينمائية تمتلك فعلاً ومضموناً ملتزماً، نستطيع أن نطلق عليها مشروعاً سينمائياً عربياً كبيراً لمخرج كبير هو السينمائي ظلّ وفيماً فلسطينياً ولم يخطئ البوصلة كزياد دويري وآخرين.

ولد جان شمعون في لبنان عام 1944، وعُرف عنه انحيازه التام للقضية الفلسطينية، كما وثق للحرب الأهلية اللبنانية، فخاض جحيمها وانحاز للناس المهمشين والفقراء لينقل صوتهم ومعاناتهم. تزوج جان شمعون من المخرجة الفلسطينية مي المصري، التي شاركته أيضاً تصوير وإخراج عدد من أفلامه، ومن أبرزها فيلم "تل الزعتر" بالاشتراك مع المخرج العربي الفلسطيني الراحل مصطفى أبو علي، وقدم فيه شهادة حول المجزرة التي ارتكبت بحق الفلسطينيين واللبنانيين في المخيم على يد حزب الكتائب ومقاتلي جبهة "حراس الأرز". كما أخرج "تحت الأنقاض" و"زهرة القندول" و"أحلام معلقة" و"زهينة الانتظار"، وفي رصيده فيلم روائي طويل هو "طيف المدينة"، كما أخرج البرنامج الإذاعي الشهير "بعدنا طيبين قولوا الله" الذي أعدّه زياد الرحباني في العام 1976، وأشار من خلاله إلى فساد الطبقة الحاكمة وأمراء الطوائف في معاركهم وتسوياتهم، التي كان جزءاً كبيراً منها تكريساً لزعامة المادية، وبدرجة أكبر تطرّق للوضع السياسي والاجتماعي لبنانياً وعربياً بأسلوب ساخر.

كان شمعون رجل مواقف ثابتة، نفسه طويل وطباعه حادة وتوجهه راديكالي كما يُعرف عنه، كان مقتنعاً بضرورة مواصلة المعركة مهما كلف الثمن، وكانت طبيعته حادة رغم طبيعتها، ضاحكة، كريمة، ظريفة، صلبة في تمسكها بالمبادئ، واثقة سلفاً من نتيجة المعركة الصعبة والطويلة.

هذا التفاؤل الثوري، في قاموس العارفين، لم يفارق جان يوماً، على الدرب المتعرجة، ولا شريكته في السينما والحياة مي المصري.

لقد تمخّض عن تجربة فريدة، جمعت بين الإبداع والالتزام، بين الهواجس الجمالية والنضالات الوطنية، فأفلامه الوثائقية المشغولة بحرفية حملت بعداً نضالياً عالياً وواضحاً، حمل الكاميرا كما يحمل المقاتل السلاح، مواجهاً كل العذابات وكل أنواع الاحتلال والقهر والسلب.

أمّن جان بعروبته، حتى بعد عودته من باريس حيث أكمل دراسته في الفنون السينمائية، أصبح عربياً أكثر، فبقيت فلسطين والقضية العربية هاجسه، ولم تسرقه النجومية ولا الأضواء، لم يعان من عقدة الغرب والاعتراب، وظلّ وفيماً لرسائلته حتى غيابه.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

يقول المثقف بيار أبي صعب في مقالته "سينمائي الذاكرة المثخنة" في جريدة الأخبار اللبنانية العدد 3247، والتي يشغل موقع نائب رئيس التحرير فيها، بعيد رحيل جان شمعون : اليوم مع انطفاء جان شمعون بعد اعتكافه في الصمت، ندرك أكثر أهمية هذا المسار الاستثنائي في تاريخ السينما العربية، وكم يصعب أن نجد له ورثة. لقد أخذ الكاميرا إلى الشارع كي تشهد. زرعهما بين الناس، في المتاريس والخنادق، "تحت الأنقاض" وعند خطوط التماس، على حافة الجراح، كي تؤثّق محطات هذا المخاض العسير، كي تنقل صوت الناس وحكاياتهم، أحلامهم وعذاباتهم. جان ومي، هما حاملاً لواء السينما المقاومة بامتياز، "سينما الإنسان والذاكرة".

غريب أن يرحل جان شمعون بلا صخب أبداً، الشاب القادم من قرية سر عين البقاعية، جذبتة المدن الكبيرة والعدسة الصغيرة في آن معاً، فقرر أن يكون مخرجاً في زمن عزّ فيه المخرجون الذين يحافظون على بوصلتهم على الرغم من ضياع البوصلة الأم.

منبر حر: في هيمنة الصورة على الحقيقة و فرض رسمها على الواقع الجزئي أو المجزأ

واصل البذور

قد يصحّ أنّ منطق القوة هو الذي يفرض الواقع وأنّ الشعوب في أغلبها تميد إلى جانب القوي حقاً أو فساداً في النمط والمفهوم سواءً في قوة المال أم قوة المسيطر جبراً.

قد تفسر تلك الحقيقة ذلك الاستلاب في وسم الهوية والشخصية للمستعمر وميراثه الثقافي في صياغة الشخصية العربية. قبل قرن من الزمان في الواقع العربي، كانت الثورة هي المنطق والقانون المسيطر طوعاً لا جبراً، وبعد الحربين أصبح المفهوم الحتمي (تبعاً للحقيقة الكبرى والموضوعية) الذي يسود هو أنّ أمة العرب أمة كبرى تملك كيائها وتميّز هويتها بأن لا تمكن لأحدٍ عليها غير ذاتها وتجلّى ذلك في مشروعها الأكبرين البعثي والناصري. الفهم والرؤية التي وهبت للشخصية العربية سواء على مستوى الفرد أم الجماعات بنماذجها المختلفة أعطتها قدرة على الأداء واتخاذ الموقف ومن ثم المبادرة القومية الصحيحة وإن كان الثمن نضالاً مريراً وتضحيات كبيرة.

في هذا العصر أصبح الواقع المركّب: الاستعماري الرجعي المتأسلم المتصهين، هو المهيمن الذي يفرض الصورة كرهاً لا طوعاً، ترهيباً أو إغراءً، تلك الصورة التي بدلت الوقائع والمواقع تديلاً جذرياً أصبح فيه الخائن بطلاً والبطل الحق خائناً. استخدمت تلك الكيانات الاستعمارية وأذيالها الرجعية كل أدوات القوة المادية من

قوى عسكرية ومدد مالي وشعبي وإعلامي. فمثلاً لقد استطاعت قناة الجزيرة، بيت الكباثر، أن تدمر وتهلك ما تبقى من العقل العربي حتى أصبحت الضئيلة قطر ذات وزن في هذا البحر المائج. لقد أودعت الصورة الوهمية الطاغية في الذات العربية حيوداً عن العروبة ونزوعاً من مراكزها في بغداد والشام ومصر والجزائر إلى أسافل أصغريها، أكبر مجرميها.

للجمالية، سأطرق القاعدة بالمثال وسأقتضب النصّ بالصورة في محاولةٍ لعلاج موضوع طغيان الصورة المهيمنة على الحقائق الكبرى وخصوصاً دنيا العرب والعروبة. فتمثيلاً لا تحديداً، على العقل الضحية، تجثم مملكة فارس على أرضها التي نعرفها أو حتى بما يتجاوز حدودها اليوم، وأحياناً بكثير، وهي تاريخياً دولة ذات وزن ثقيلٍ نسبياً في المنطقة، سواء كان ذلك نتيجة لحجمها ومقدراتها، أو لعراقتها الحضارية الممتدة في عمق الزمن. رغم هذه العناصر المادية والثقافية التي لا يكاد يوجد من ينكرها في هذا العالم، إلا أنّ تزوير الصورة أمام عقلية طائفية سنية مغلّة في التخلف والتبعية والعمالة المبيّنة، حتى أنه لم يتبقّ من متعلقاتها إلا النزر القليل نتيجة لعمليات التحريف المكثف للعقلية والصورة والحقيقة، فاخفت ملامحها وأصبحت تتحدث وتتصرف بلسان شيطاني غربي متصهين، بوعي أو بغير وعي، فإننا نجد من يضيق ذرعاً بدولة الفرس هذه و يرى أنّه لا حلّ إلا بزوالها بينما يرى على الطرف الآخر بعين عمياء وعقلٍ تعفن وأنتن لسوء الاستعمال أو انعدام الأعمال، يرى أنّ الدولة الصهيونية، معسكر الغرب المارق، واقع يفرض نفسه ويجب الاعتراف به ككيانٍ أصيلٍ وموجود.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

لقد أدت هذه الحالة المهترئة من أنماط العمل والتفكير في الوطن العربي إلى حالة نفسية جمعية من الفصام وتعدّد الشخصية وتقطّع الأفكار (إن وجدت أصلاً)، أصبح معها العقل العربي يرفض حقائق التاريخ وقوانين الفيزياء وأصيب بعجز عن رؤية ما هو ملموس. في مثل هذا السياق، علّت أصوات العرب المُنادين بأبناء الحثيين الأتراك، أصحاب الشانّ العريق في دمار العرب والعروبة، وأخذوا يعلقون آمالهم على المطيّة أردوغان وأمثاله من أشباه الرجال، ويرون أنّ فيهم القوة الخارقة التي ستسحق روسيا وأمريكا وستحرر فلسطين، وأن الأتراك سيعيدون للعرب مجدهم الغابر، وامتدّ تحقير العقل العربي إلى أكثر وأتفه من ذلك حتى أصبح التجار والمواطنون العرب يظنون أن برّكات أردوغان جعلت من بضائع تركيا جودة تفوق أوروبا والعالم الأول لدرجة أن أسواقنا أغرقت بمنتجات أردوغان الوضيعة مثله. وبالمقابل نسيت تلك العقول المترنّحة أن إمبراطورية بني عثمان عندما كانت في أوج قوتها قبل حوالي مئتي عام تنازلت عن الجزائر لفرنسا ودون أن تتفوه بحرف، كما ونسيت أن تركيا هي عضو فاعل في تحالف الناتو الإمبريالي ونسيت أنها الشريك الأكبر في المنطقة لدولة الكيان الصهيوني. على الرغم من هذه الحقائق التي لا يستطيع أحد المراء فيها، إلا أنّ العقول المخمورة ما زالت تنتصر لأردوغان وزمرته المتصهينة وأسلمته الزائفة.

وللوقوف على الشذوذ في التفكير المتولّد تحت وطأة تأثير الصورة الطاغية على الحقيقة، لا بدّ من وضع اليد على أنماط التعامل الخاطيء مع الحقائق. يمكن القول أنّ الوقوف في تيار مناوئ للحقيقة ينطوي على ثلاثة أنماط رئيسة هي:

النمط الأول: هو نمط من يعرف الحقيقة ولكنه يدعم الأطراف والمفاهيم الخاطئة المعادية حرصاً على مصالح فردية براغماتية محضة.

النمط الثاني: هو نمط من لا يعرف ولا يفهم الحقيقة، كالكثير من الناس، ويحدد قراراته وأفعاله بناءً على الصورة المضللة وأصحاب الصوت الأعلى والأكثر وصولاً بغضّ النظر عن المصادقية أو النوايا، وغالباً ما تكون تصرّفات هذا النوع جملة انفعالات (غضب، فرح، حزن، حماسة...) لا تشير إلا إلى حالة هزيلة من وهن المجتمع والمواطن.

النمط الثالث: من هم على علم ودراية تامة بما يجري ولكن معادلات الأرض تفرض عليهم قسرياً سلوكاً أو موقفاً معيناً بغير سوية، وعادة ما يكون ذلك مؤقتاً حيث تتغير المواقف أو تزول بزوال المؤثر. يمكن الاستنباط أنّ جُلّ المشكلة يكمن في النمط الثاني والذي يشكّل أفضل المجتمعات عدداً وصوتاً. إنّ تفكيك وحرق مشكلة هذه الفئة قد يكون هو الطريق إلى قراءة طلاسّم الواقع العربي وترجمتها في وضع الأمة في سياقها التاريخي الصحيح. وعليه فلا بدّ من وضع قواعد لتغليب العقل الصحيح على الصورة الطاغية، مثل تلك القواعد يجب أن تتسم بالبساطة وغالبية في الثبات وقلّة في العدد. ولما تقدم، إنّ ما يتلو هو مبادرة أولية لوضع قواعد تسهّل مهمة معرفة الحقيقة والاضطلاع بها وكسر هيمنة الصورة الكبرى المحدثّة قسراً لا طبيعة:

القاعدة الأولى: إنّنا أمة العرب على أرضها من خليج العرب إلى محيط مغرب العرب: وهذا هو المحدّد الأول الذي يحدد هويتنا (التي تكاد أن تذب)، والمبدأ الذي يعطينا فهم أدوات ووسائل الدفاع عنها، وكل قاعدة أخرى تنبثق عن هذه القاعدة.

القاعدة الثانية: إنّنا أمة لا تعتدي: فنحن أمة تقف عند حدودها ولا مصلحة لها بفتح الصين أو تسنين فارس. إذا استطعنا تشخيص هذه القاعدة جيداً وطبقناها بمعناها الحقيقي، فإننا لن نجر خلف أردوغان أو أحلافه مثل بني إسرائيل وأمثالهم.

القاعدة الثالثة: ما يحدد خطأً وصواب قوى الكون تجاه أمتنا هو مصلحة الأمة العليا وكمايتها وعدم الاعتداء عليها هويةً وإنساناً وقيمةً ومقدراتٍ وحدوداً، عندها يصبح كل من يحاول اللعب في ساحة الأمة عدواً بيننا يسهل التعامل معه.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

القاعدة الرابعة: المعرفة قبل الحكم؛ هذا هو مفتاح الموقف، فلا مواقف بالاعتماد على معرفة الآخرين ولا انفعالات نفسية تجرّ إلى موقفٍ سقيم، فلّكي تنموقع في خندقٍ معينٍ علينا التسلّح بالمعرفة الكلية والجزئية للقدرّة على الانتهاء بالموئل الصواب الذي يرتقي بالأمة.

القاعدة الخامسة: الإعلام أفة وأفيون الشعوب، و قد يكون أصدق الأخبار هو ما يحيد عنه الإعلام، ولكن ورغم ذلك فإنّ ثمة معلومات محورية لا يمكن للإعلام إخفاؤها أو تزويرها، ويمكن تحديد هذه المعلومات بأن معظم كيانات الإعلام متضادة أم متفقة تتقاطع عند مثل هذا النوع من المعلومات؛ هذه التقاطعات على الأغلب هي الأقرب للحقيقة وما سواها تحليل وتحريف وتاويل. وهذه القاعدة فعّالة في تحديد الحقائق والمواقف.

القاعدة السادسة: إننا أمة قائمة بذاتها ليس لأحد عليها وصاية أو ولاية. عندما تطبق هذه القاعدة نعي أن كل من يمارس هذا الدور (الوصاية أو الولاية) فإنه مستعمرٌ أو محتل، ونعلم أن كل من أراد أن يكون عزاباً لمن أراد الولاية والوصاية بدون شك هو عميلٌ ومتآمر ولا مكان له في أمتنا وإن كان من أبناء جلدتنا.

إنّ كل تلك المقدمات والوقائع يمكن إسقاطها على الواقع العربي المجزأ. في هذا السياق تتضح الصورة القطرية والتي تبرز فيها السعودية دياراً مقدسة، والأردن أولاً ومصر أم الدنيا والعراق بوابة الشرق العظيمة ومنتشاً التاريخ إلى غير ذلك، وهي مسميات لم تستثمر يوماً إلا بمعناها القطري الإقليمي الضيق البغيض. وبناءً عليه يترسخ زوراً أن الفكر الإقليمي كفكرٍ صحيح أقرب إلى الواقع. وينظر الكثيرون، ولكن يخطئ ويبرمج القليلون، لأكون موضوعياً منصفاً ليس هناك في الوطن العربي سواءً على المستوى الإقليمي أو القومي من وضع برنامجاً أو مخططاً شاملاً ودخل حيز التنفيذ للحكم على صحته أو خطئه للارتقاء بمستوى الدولة القطرية للوصول إلى مستويات الدول المتقدمة عسكرياً واقتصادياً ولكن هيهات. إنني أرى إزاء ذلك أنّ ما يدور من ضعفٍ وتخلفٍ وفسادٍ وفوضى في القطر الواحد ما هو إلا انعكاس للحقيقة والواقع الأكبر، واقع التجزئة. فمثلاً لو أخذنا دول الخليج بعين الاعتبار فهي دول الثروات الكبرى في العالم، إلا أنها ليست أكثر من دول ورقية يعيش مواطنوها حياة الذل والهوان وممارسة الغرائز اليومية التي يتساوى فيها الإنسان مع الحيوان. إنّ ذلك ناتجٌ عن عدّة عواملٍ أهمها عيبٌ في الثقافة والمعرفة والصورة المفهومة التي قد يوجد الحل لها في بغداد والشام ومصر والجزائر، وقد يكون فتقاً في القوى التي يمكن أن تكون متوفرة في مصر واليمن، وقد تكون خطأً في الامتداد ومنطقة العمل والسوق، إنّ منطقة عملهم وسوقهم الحقيقي هو الوطن العربي بدون جدال. وإذا ما أسقطنا ذلك على الواقع في كل إقليم عربي من حيث مكانته ووضعيته وظروفه الموضوعية والجغرافية وزوائده ونواقصه ومائه وأرضه وسكانه، فإنّ المعادلة تصحّ تماماً.

إنّ هنالك تطبيقاً آخر يثبت صحة هذا الرسم لتغليب الصورة فوق الحقيقة، إنه موضوع الساعة على الأرض العربية والحرب الكونية على سورية. في هذه المسألة نرى أنّ الإعلام المسيطر والمتواطئ يجرد مسألة سورية على أنها رئيسٌ يقتل شعب الدولة، ولكن إذا نظرنا بعين الحقيقة لما يدور، فيمكن إدراج ذلك في محورين: المحور الأول: إن هذه الحرب أصبحت جزءاً من الحرب الدائمة بين المعسكر الإمبريالي الغربي وأحلافه من الحركات المتأسلمة والأنظمة الرجعية العربية من جهة لنهب مقدرات العالم لصالح الإمبريالي الأكبر وبين المعسكر المناوئ (بشكل رئيس المعسكر الشرقي الذي يضم روسيا والصين وإيران وسورية....) والذي يدافع عن العالم فعلياً.

المحور الثاني: من أهم محددات التصورات لهذه المعركة هو نتائج الحرب التي يمكن أن ينظر إليها كالتالي:

- 1- أدت هذه الحرب إلى دمار سوريا العربية
- 2- نشوء احتمالية قيام دولة كردية على أرض عربية
- 3- ضعف الدول العربية عامة لمصلحة الكيان الصهيوني
- 4- يسود التقسيم أو شبه التقسيم ومناطق النزاع والحروب الأهلية في كثير من أقاليم العرب
- 5- أما من حيث الدول التي اختارت أن تكون في خندق معسكر الشرق، فكانت النتائج تقلل احتمالية التقسيم والنزاعات الممتدة والحروب الأهلية، وساهمت في القضاء على الإرهاب أخذاً بعين الاعتبار أنّ المعسكر الشرقي ليس له تاريخٌ استعماريّ في المنطقة بل هو حليف في جلّ تاريخه، وبالمقابل فإن المعسكر الغربي هو معسكر دمار العراق وسورية ومصر والجزائر واحتلال فلسطين ومنذ سبأ وكندة وقضاة وغسان والحملات الصليبية والاستعمار الحديث وهو يمارس شهوته الاستعمارية القذرة.

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

ومع أنّ كلا المحورين السابقين وعناصرهما يوضحان خطأ ما يضخم أو يشوّه بالإعلام إلا أن قسماً من الشعب العربي أزعج البصر واختار أن يرى الصورة الوهمية وأن يقف إلى جانب الإمبريالية وبنّي صهيون والعثمانيين الجدد.

وأخيراً أودّ التنويه إلى أنّ الحركات الإسلامية الشائنة بجلبها ليست إلا جزءاً من الطوق المتأسلم الذي أنشأها لغرب لمحاصرة روسيا ولكنّ الواقع المصطنع يظهر هذه الحركات على أنها البطل المضخّي الذي يسعى لإنقاذ الأمة. ومن الأمثلة الحديثة على ذلك إشكالية مسلمي ميانمار الذين لم يُعرف عنهم منذ الحرب العالمية الثانية أكثر من أنهم الهنود البريطانيون (British Indians) والذين عملوا كجواسيس وأدواتٍ للاستعمار البريطاني في بورما، أصبحوا اليوم مسلمي بورما الذين يتوجب علينا شدّ الزناد لدعمهم لأنهم جزءٌ من النسيج الإسلامي وفي الحقيقة ما هم إلا أداة ودمّ رخيص في يد المعسكر الغربي ضدّ المشرق.

المؤامرة حقيقة جلية وليست مجرد نظرية

عبدالناصر بدروشي

على خلاف الأمم في مشارق الأرض ومغاربها يتميز وطننا العربي بجغرافية فريدة من نوعها جعلته يحتل قلب العالم وكان بمثابة عقدة المواصلات البرية والبحرية التي مرّت بها أغلب تجارات وحضارات الأمم في العالم، بالإضافة إلى ذلك يمتاز الوطن العربي بأنه مهبط وحي الأنبياء؛ فشهد ميلاد الأديان السماوية وحتى الوضعية فتحول إلى فضاء لتفاعل الحضارات والأديان.

هذا الواقع الجغرافي فرّض تنوعاً حضارياً وأصبح وطننا أضخم خزّان حضاري يضمّ بين جناحيه الإفريقي والآسيوي طوائف وأديان ما لا تمتلكه أمة من الأمم.

معلومٌ أن التنوع الحضاري والثقافي داخل الأمم هو عنصر إثراء ثقافي ومصدر قوة للشعوب إذا ما حُسن توظيفها، أمّا في ظلّ تراجع الانتماء القومي وصعود الحسّ الطائفي على حساب الانتماء للأمة والوطن، كما هي حال أمتنا العربية اليوم، فإنّه يتحول إلى خطر يهدد وحدة المجتمع ومصدر لتمزيق النسيج المجتمعي للأمة.

بعد مرور ما يزيد عن قرن من الزمن على تمرير مشروع سايكس-بيكو وتقسيم الوطن العربي إلى دويلات، يمكننا أن نلاحظ أن حلم الوحدة لم يمتّ في قلوب الجماهير أيام التقسيم والاحتلال، بل تحوّلت مشاريع التقسيم والاحتلال إلى عناصر محرّضة للجماهير العربية، ولم يزددهم واقع التجزئة إلا توقفاً وشوقاً للوحدة دفعهم واقع الاحتلال إلى السعي بشغف نحو التحرر والانعتاق والكرامة، وكان المواطن العربي البسيط ذو التعليم المحدود في أي مدينة أو قرية أو بادية من بوادي وطننا الكبير يمكنه أن يرى بفطرته السليمة أنّ الحد الفاصل بين الجزائر وتونس أو بين لبنان وسورية ليس طبيعياً، وأنّ من يعيشون خلف تلك الحدود الوهمية ليسوا شعباً آخر، والحد الفاصل بين قطرين لا يجعل من سكان كلا المنطقتين شعبين، بل أبناء وطن واحد قام الاحتلال بتقسيمهم لإضعافهم وإخضاعهم..

ما الحل لإقناع العرب بأنهم شعوب مختلفة؟ وما الحلّ لخلق حدودٍ يمكن أن تصمد عمراً أطول وتقبل حلم الوحدة قبراً وتكون أشد إقناعاً للعرب بأنهم أمم وشعوب مختلفة؟؟

عندها تفنّق ذهن الإمبريالية عن مشروع شيطاني ألا وهو مشروع إعادة تقسيم المنطقة، لكن هذه المرة على أسس جديدة، هي الأسس الطائفية والعشائرية والقبلية عبر تغذية الانتماءات الفرعية على حساب الانتماء القومي وتعزيز وعي الطائفة بذاتها، وأن تدرك الطائفة أنها مختلفة ولا يمكن أن تتقاسم حيزاً جغرافياً مع الطائفة الأخرى، وأن تكون الطوائف في حالة صراع دائمة مع بعضها البعض.

«إذا كانت فرنسا تدّعي أنها احتلت سورية لحمايتنا نحن المسيحيين من المسلمين، فأنا كمسيحي من هذا المنبر أشهد أن لا إله إلا الله».

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

كانت تلك الكلمات الخالدة صفة في وجه الاحتلال الفرنسي قالها "فارس الخوري"، يوم أبلغه الجنرال "غورو" أن فرنسا جاءت إلى سورية لحماية مسيحيي الشرق، فما كان من فارس الخوري إلا أن قصد الجامع الأموي في يوم جمعة وصعد إلى منبره وقال مقولته الشهيرة تلك، فأقبل عليه مصلو الجامع الأموي وحملوه على الأكتاف وخرجوا به إلى أحياء دمشق القديمة في مشهد وطني تذكرتة دمشق طويلاً وخرج أهالي دمشق المسيحيون يومها في مظاهرات حاشدة ملأت الشوارع.

كثيرة هي المواقف في تاريخنا العربي التي تثبت أن الطائفية ليست صفة أصيلة في مجتمعنا العربي، وأن التنوع الديني والطائفي والعرقي لم يكن حاجزاً أمام حركات التحرر العربي مثل الجزائر التي أبدعت أروع صور ثورات التحرر الوطني ولم تتأذى من الطائفية إلا في العقود الأخيرة لما قام الاستعمار بتفعيل طائفية الإسلام السياسي الإخواني وتحريض العصبية القبلية لشل حركتها نحو النهوض.. ونضرب مثلاً آخر على ذلك من تاريخنا العربي وهو مشاركة المسيحيين العرب بكثافة في موجات الفتح الإسلامي، حيث اتحد المسيحي العربي مع أخيه المسلم العربي ضد المسيحي المحتل في معادلة في غاية من الفرادة والجمالية تبرز قيمة الرابطة القومية وارتقائها فوق رابطة الطائفة الفرعية.

ومع وجود بعض الثغرات في الموروث الفقهي الإسلامي السني والشيوعي، على سبيل الذكر لا الحصر، حيث أن لكل طائفة ثغرات تعشش في موروثاتها التي يمكن أن يستغلها أعداء العروبة والإسلام في تفتيت مجتمعنا العربي، إلا أن النعرات الطائفية والفتن المذهبية كانت دائماً ما تشتعل على طريقة الحرائق المقتعلة، مثل فتنة السنة والشيعة في العراق ولبنان وسورية والعرب والأكراد في العراق وسورية إلخ...

عند الحديث عن الحرائق المقتعلة تنطلق جوقة المتحاذقين المعروفين بنقاد "نظرية المؤامرة" محاولين لفت أنظارنا عن المساعي الإمبريالية لتكريس عوامل التجزئة والاحتلال والتخلف في صفوف أمتنا العربية ويقولون "بدل أن تتساقوا وراء نظرية المؤامرة وتستكينوا لوهم المؤامرة لتبرير فشلكم وبدل الحديث عن "مشعل الحرائق" عليكم أن تبحثوا عن المواد القابلة للاشتعال في صفوفكم وعن عوامل التفارقة في صفوفنا نحن كعرب، فنحن المسؤولون عن كل ما يحصل لنا، ولولا وجود عوامل التفارقة في صفوفنا لما تمكن العدو من إثارتها.."

كما يعتبر نقاد ما يسمى بـ "نظرية المؤامرة" أنّ كل اتهام لحراك يهدف إلى الانعتاق من براثن الاستبداد والديكتاتورية أو حتى مجرد التشكيك فيه هو من مخلفات الهوس بنظرية المؤامرة، وهي حجة العاجزين والمستفيدين من غياب الديمقراطية والحرية..

كلام قد يبدو منطقياً وعقلانياً أكثر من الحديث عن الأيدي الخفية والمؤامرات الماسونية التي تُحاك لنا بليل.. طبعاً إذا ما تجاهلنا ما قام به الأمريكان بعد احتلال العراق وتدميره وتمير دستور بريمر الذي كرس الطائفية وأبرزها، وإذا ما تجاهلنا طبخة "الطائف" في لبنان التي أعدت في المطبخ الغربي، بالإضافة إلى الثورات الملونة في جمهوريات الاتحاد السوفياتي والتي أدت إلى تنصيب حكومات تابعة للغرب وخدمة لمصالحه..

ألا يحق لنا أن نشك في بعض الحركات أو حتى كل الحركات التي تجري من حولنا خاصة بعد أن رأينا بما لا يدع للشك مجالاً أنّ الحركات الربيعية انطلقت من تونس وصولاً إلى سورية تحظى بدعم وتسليح وتمويل غربي غير مسبوق؟؟

من المفارقات العجيبة أن يجد المرء نفسه متهماً بأنه من المهوسين بما يسمى "نظرية المؤامرة" كلما تعامل بحذر مع بعض الأحداث أو الحركات التي تجري هنا أو هناك على جغرافية وطننا العربي الذي أصبح يشبه إلى حد كبير الأرض البركانية.

إن التاريخ التأمري للولايات المتحدة الأمريكية (ليس ضدنا فقط كأمة عربية وإنما ضد شعوب العالم) وتدخل القوى الإمبريالية بالقوة الخسنة والناعمة في عدة دول بهدف قلب نظام الحكم الذي لا يخضع لسلطانها ولا يخدم مصالحها يدل على أن المؤامرة أمر واقع وليس نسجاً من الخيال، كما أن وثائق سايكس-بيكو وأطنان الوثائق التي أفرجت عنها دائرة المعارف البريطانية والتي تسربت من دوائر صناعة القرار الغربية والصهيونية تدل على أن القوى

العدد رقم (42) صدر في 1 تشرين الثاني عام 2017 للميلاد

الإمبريالية كبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لا تتأمر علينا فحسب، ذلك أن المؤامرة هي مكيدة تُحاك في السرّ وما يفعله بنا الغرب الإمبريالي هو عدوان وانتهاك في العلن وهو واضح وجلي كالشمس في رابعة النهار ولا يعجز عن رؤيته إلا الأفاكون ...

ففي الوقت الذي يقرّ فيه أعداء أمتنا بتأمرهم علينا جهاراً نهاراً، تنهمر علينا سيول من التحليلات المقروءة والمكتوبة من "المواسير" الإعلامية تسخر من كل من يسلم الضوء على التدخلات الغربية في بلاد العرب أو يشكك أو يطعن في أهداف بعض الحركات المشبوهة والمدعومة من قبل أعداء الوطن متهمة إياه بأنه من المهوسين بنظرية المؤامرة، وبات مطلوباً من المواطنين العرب، وخاصة المهتمين منهم بالشأن العام أن ينطلقوا للتسليم بعفوية أي جراك والكفّ عن الحذر وعدم الاستسلام إلى "نظرية المؤامرة" التافهة... ما يجري اليوم لنا تعدّي حدود المؤامرة وأصبح من المضحك توصيفه بالمؤامرة حقاً، فهو بلطجة غربية واضحة وضوح الشمس، فالمؤامرة تُحاك ضدّ طرف قوي ويتمّ تمريرها سرّاً للنيل منه، أما اليوم فقد بلغت أمتنا من الهوان حداً جعل من الإمبريالية لا تُقيم لنا وزناً..

صحيح أنّ تفكيك الألغام التي يعجّ بها موروثنا الثقافي والديني والذي بات يهدد بحرق الأخضر واليابس وينذر بهلاك أمة العرب وينقلها إلى عصور أشدّ ظلمة من تلك التي مرّت بها أمة من الأمم على وجه الأرض ينبغي أن يحتل أولوية في أجندة القوى الثورية والقومية، إلا أن العلاج الثقافي يتسم بطول الأمد ويستوجب نفساً طويلاً وجوّاً من الاستقرار السياسي ونظاماً تعليمياً وبرنامجاً ثقافياً يُرسيه نظامٌ سياسيٌ ثوري يمسك بمقاليد الحكم.

الحلّ يكمن في الحرب على الجبهتين الداخلية والخارجية.. حربٌ على الجبهة الخارجية ضدّ الاحتلال والمؤامرات التي يحكيها بهدف تدميرنا وتقسيمنا وإخضاعنا، وحربٌ على الجبهة الداخلية ضدّ الجهل والتخلف وكلّ العوامل التي من شأنها أن تجعلنا دمية في يد من يريد التلاعب بنا والعبث بأمتنا ووحدتنا واستقلالنا كأمة.

قصيدة العدد: صلاة الياسمين

طارق شخاترة



وما تخليت عن مجراك يا بردي
قلباً وروحاً أبت أن تترك الجسدا
هذا الصمود محال أن يضيع سدى
سور الشروق مع الفجر الندي غدا
ولا التطرف يدمي سيفه الأحدا
ما دمت للصامدين العون والسندا
ذاك الوفي الذي أوفى بما وعدا
هذا العرين الذي لم ينكسر أبدا
هيهات أن يبلغ المستأسد الأسدا
وخائف شاهد الأخطار فارتعدا
لمن تراه بوقت الضيق مبتعدا
الشام شام الذي في السحاح قد صمدا
إلا الذي واجه البركان متقددا
جنناك يا أرض منصورين أو شهدا
دعي جمالك مثل الأمس منفردا
إياك يا حلوتي أن تشبهي أحدا
من الجمال لها ديناً ومعتقدا
لا تسكنوني فلن أبقى لكم بلدا

بقيت تجري وتروي كل من وردا
فكنت في الأرض جندياً وكنت لها
هنا تُعيد إلى الأمجاد سيرتها
غداً تعود صلاة الياسمين على
ولن يعجز أهل السبب جمعتنا
بشار لن تكسر الدنيا إرادتنا
بشار ما زلت في عيني عروبتنا
وهل تبقى أمام الزائرين سوى
كل الذين عليه استأسدوا اندحروا
الشام ليست لمحتل ومرتزق
الشام ليست لأشباه الرجال ولا
الشام ليست لمن ولى وفارقها
لا يستحق نسيماً من نسانمها
ها هم حماة الديار الآن قد هتفوا
عودي كما كنت سورياً برقتها
عودي كما كنت سورياً بزيتها
كوني كما أنت سورياً التي اتخذت
قولي لمن كانت الأحقاد تسكنهم

كاكاتور العدد



انتهى العدد